سليم واكيم

موجز لتاريخ الشيوعية في الشرق الأوسط

١٩٧١

سليم واكيم

موجز لتاريخ الشيوعية في الشرق الأوسط

الطبعة الأولى
١٩٧١

المحتوى

المقدّمة

ان الاخطار التي تحيق بالشرق الاوسط عامة والشرق العربي خاصة حقيقة لا مجال للشك فيها ، اخطار سياسية يواكبها جيش من العقائديات التي تمهّد للسيطرة تماماً كما تمهّد المدفعية للمشاة في كسب المعركة .

وليست هذه الاخطار او ما هُيأ لها ، كما سيرد بوضوح في هذا الكتاب ، وليدة تطورات تمخض عنها القرن العشرين بما تتفاعل فيه من تحوّلات حديثة ، انما هي قديمة قدم منطقة الشرق الاوسط وتعود الى عهود الطامعين بالسيطرة على امه وخيراته .

والشيوعية عقيدة تكاد تكون ديناً لا تدخل جيوشها ارضاً ما لتمتزج بأقوامها الا اذا قضت على عقائد هذه الاقوام وعلى ثقافاتهم في عالمي الدين والدنيا .

من هنا نجد ان الصراع الطويل الامد ، البطيء الخطى ، بين التسلل الشيوعي الى منطقة الشرق الاوسط وشعوب هذه المنطقة ،

كان ولا يزال صراعاً عنيفاً ، خفياً حيناً وظاهراً احياناً ، والصراع بحد ذاته هو دليل جازم على عامل المقاومة البديهية الكامنة في عقائد شعوب هذه المنطقة، تلك التي تقوم على قواعد متينة ونواميس طبيعية لا تستطيع العقائد الدخيلة ان تدحرها ، اياً كان مصدرها .

وهمنا الرئيسي من هذه الدراسة الموضوعية هو ان تكون اساساً لكل عمل سياسي ، او نشاط دبلوماسي ، يقوم به القيّمون على مقدرات منطقة الشرق الاوسط ، وذلك من خلال الاحداث التي عرضنا مسبباتها ونتائجها بكل بساطة وصراحة .

ومحور الموضوعية التي نعتمد اننا لا ندعو الى السير في ركاب الغرب ، ولا ندفع الى التحامل على الشرق السوفياتي والصيني ، لاننا نؤمن اولاً بديمومة ذاتيتنا ، وبالتالي نلحّ على الا تخضع صداقاتنا وخصوماتنا الى غير المصالح الاساسية لشعوب في منطقة حساسة ، كانت وسوف تبقى ، نقطة الارتكاز في الحضارة الانسانية .

المؤلف

تمهيد

قد يلاحظ القارىء ان في عبارة « التسلل » بعض التجني الذي يطلق عادة في الاشاعات والدعاوات المغرضة . واننا نبغي من هذا الكتاب القدح والذم بالشيوعيين ، او وصفهم بما هم ليسوا فيه ، او باقامة الدنيا عليهم .

كلا ، ايها القارىء ، ان الغرض من هذا الكتاب هو طرق موضوع حصل في الواقع ، وقد تطرقنا اليه من زاوية جد طبيعية ، بحيث ليس ثمة دولة تستطيع الدخول بجيوشها وخبرائها اراضي دولة اخرى دفعة واحدة ، او بين ليلة وضحاها ، دون ان تمهّد الى هذا الدخول بشتى الوسائل والاعلام وخلق الاسباب وتهيئة الجو الملائم المبرر لهذا التدخل .

وقد يظن القارىء ان التسلل هذا ظاهرة جديدة طلع علينا بها القرن العشرين ، الواقع انها ظاهرة طبيعية بشرية مألوفة مارسها البشر مذ وعوا أنفسهم ، اي منذ بدء التاريخ .

واذا حصرنا الموضوع في منطقة الشرق الاوسط فقط ، وقلبنا بعض صفحات تواريخها ، وعدنا الى الماضي البعيد ، اي الى منذ ما يقارب الخمسة آلاف سنة ، وجدنا ان التسلل انما كان يسبق كـــل الغزاة ، حتّى ولو كان الغازي من البلدان التّي نحن في صددها الآن .

لم نجد في التاريخ ظهور جحافل غريبة تغزو ارضاً ملك الآخرين فجأة ، حتّى في العصور القبلية . كان زعماء القبائل يرسلون بعض الافراد لدى القبائل الاخرى لجس النبض ، وعرض ما يمكن عرضه ، والاتفاق على ما ومع من يمكن الاتفاق معه او عليه . وفي كل عصر ومصر ، كان ثمة مستاؤون من العشيرة او القبيلة ، وكان ثمة مغضوب عليهم تنفيهم القبيلة ، فيذهبون ويتعاونون مع قبائل اخرى لغزو القبائل التّي خرجوا على تقاليدها او أخرجوا منها .

هذا في عصر القبائل . اما في عصر البلدان والامم ، فنرى ان الامراء والملوك انما كانوا يمهدون بالهدايا وتسلل الجواسيس والتجار والموفدين لجس نبض الحكم ومعرفة ما اذا كان قادراً على الصمود في وجه غزو محتمل ، وكانوا تارة يمهدون بالتهويل والتهديد حتّى اذا ما نالوا مرامهم تراجعوا والا جندوا الجيش ، وركبوا الخيل ، وساروا في اتجاه البلاد التّي ينوون حطّ الرحال فيها .

واذا قفزنا عن غزوات الفراعنة والحثيين والاشوريين والبابليين والتسلل الفينيقي التجاري، وادركنا بعض الامم الغريبة عنا ، وبلغنا عصر الامبراطورية الاخمينيـــة ، فنرى ان قورش الكبير لم يشن

هجوماً مفاجئاً على بابل ، انما عمد قبل عـــدة سنوات على إرسال الجواسيس لهذه المدينة ، وعقد اتفاقات مع بعض اليهود المسبيين في بابل تقضي بأن يفتحوا له ابواب المدينة ، وقبل عقد هذه الاتفاقيات ، علل اليهود بأنه اذا ما مدوه بالعون فسيعيد لهم بلادهم وعاصمتهـــا اورشليم (القدس) . وما معنى ذلك معناه ان قورش عرف كيف يستغل عاطفة اليهود المسبيين في بابل ، عاطفة الاقلية الغاضبة المستاءة من الحكم المركزي . وهكذا تحقق النصر لقورش بعد زمن من التسلل الذي بدأ بجواسيسه وبرجال من بلاد فارس الاخمينية .

كان اليونانيون اعداء الفرس ، وكانت كل دولة تحلم في ان تغزو الاخرى ، كانت اليونان تحاول ذلك بتسلل عناصرها الى بلاد فارس وثقافتها ، وعرفنا اثنين من كبار المتسللين الذين خلفوا اثاراً تاريخياً خالداً ، الا وهما هيرودوتوس وكسنوفون . وكان الفرس معجبين بالثقافة الهلينية وفلسفتها وبلادها وقوتها، كما كان اليونانيون بدورهم ينظرون الى بلاد فارس بلاد الحرير والذهب والاحجار الكريمة الثمينة والحضارة القديمة نظرة الاعجاب المتبادل . وكيف عرف الفرس واليونان اخبار بعضهم بعضاً لولا التسلل البشري والثقافي والاقتصادي المتبادل الى كل من هذين البلدين .

والجدير بالذكر ان اليونان بدأوا قبل غزو الشرق الاوسط بقرن، بتحريض الملوك التابعـين للاخمينين ، وكانت مصر ، كالمعتاد ، مصدر التحريض اليوناني . وقامت ثورات عدة في مصر وطرابلس وصيدا ضد الفرس ، سببّهـا اليونانيون الذين كانـوا يطمحون

الى غزو هذه البلدان . كما وان الثقافة الهلينية التي كانت تنافس الآرامية ، تلك التي اضطر الفرس الى تبنيها بدأت تنتشر في منطقـــة الشرق الاوسط ، لا سيما في شواطىء فينيقية وفلسطين ومصر ، فكانت ، الى جانب التجارة ، تشكل التسلل الثقافي الملازم للنفوذ السياسي الاغريقي .

وطلب اليونانيون من اليهود في فلسطين مساعدتهم ضد الفرس ، غير ان اليهود ابوا خيانة من ارجعوا لهم مملكتهم وأعادوا بناء هيكل اورشليم . غير انه كان لليونانيين في صيدون الكثيرون من الاصدقاء ورجال الحكم ، فقد سلموهم اساطيلهم لضرب شقيقتهم صور . وكانت صور وصيدون مدينتين تتنافسان على التحكم بفينيقية كلها ، وحتى زمن سترابون (ت ٢٥ م .) كان النزاع القائم لا يزال يدور حول ما اذا كانت صيدون المدينة الرئيسية في فينيقية ام صور .

وهكذا ، بعد ان استتب الامر لليونان المقدونيين ، وخلفهم ورثاؤهم السلوقيون في المنطقة الشرقية الشمالية والبطالسة في المنطقة الجنوبية ، بدأ التسلل الروماني تسللاً ثقافياً تجارياً في البدء حتى اذا ما قويت شوكة روما اثر القضاء على منافستها قرطاجـــة في غرب المتوسط ، انقضت على بلاد اليونان وزحفت باتجاه المشرق ومصر . وقد سبق هذا الزحف تسللٌ دام حوالي قرن من الزمن .

وهذا ينطبق الى حدٍّ بعيد على الفتح العربي . ويحدثنا التاريخ في هذا الصدد قائلاً : لعل عدم انهيار الدولة البيزنطية بالسرعة والسهولة التي انهارت فيها فارس ، ترجع ، الى كون بيزنطية كانت اكثر

تنظيماً ، كما كانت تقابل الايمان بشيء من الايمان . وأهم من هذا كله ، كانت اكثر غرابة على العرب من الفرس . فكانت بيزنطية ذات قدمين ، قدم في الشرق ، واخرى في الغرب . اما بلاد فارس ، فكانت في اختلاط مستمر مع العرب ، منذ قرون عدة . وكان العرب اكثر اطلاعاً على اخبار ملوك الفرس ودولة الفرس ، وعلى بينـــة بمواطن القوة ومواطن الضعف في هذه الدولة المجاورة ، والتي كانت عاصمتها في قلب بلاد العرب ، اذ عندما سقطت المدائن في ايدي العرب استسلمت الدولة الفارسية وخارت عزائمها . (ايران والعرب للمؤلف) .

ويقول « دوسو » ان فتح الشرق من العرب لا يرجع تاريخه الى محمد (ص) . ولقد تغلغلت قبله بكثير قبائل عربية داخل حدود العالم البيزنطي والعالم الفارسي ، منتهزة ظروف انحطاط هاتين الامبراطوريتين لتستمر في تسللها الصامت . ولم يُلاحظ هذا التسلل البطيء وقـــد مهدت الآرامية باعادة اوضاعها عن طريق السلم للتعريب ، وسهلت توطيد اركانه ، اذ انه من زغروس الى البحر الاحمر ، فيما كانت السلطة المحتلة فارسية وبيزنطية كانت الارض قد اصبحت من جديد آرامية وعربية .

من هنا يتضح لنا ان التسلل ظاهرة طبيعية ، منها عفوية ومنها مخططة . بمعنى انها اكثر تنظيماً وترتيباً . فالتنظيم انما وضع لهدف ما . وفي العصر الحديث ، في القرن الثامن والتاسع عشر ، بدأت الدول الاوروبية تتسلل الى الشرق بطرق مختلفة ، منها اقتصادية تجارية ومنها

ثقافية ومنها سياسية ، كما عقبها التسلل اليهودي في فلسطين ؟ .

فقد تسللت الدول الى مصر تحت ستار شق قناة السويس ، وحصل نزاع بين بريطانيا وفرنسا حول اسهم قناة السويس ، فاشترت بريطانيا الحصة الكبرى من الاسهم . وانطلاقاً من مسألة القناة ، راحت فرنسا تبث ثقافتها وبريطانيا تنفث سياستها .

وفي لبنان ، عمدت كل دولة من الدول الكبرى الى التسلل عن طريق الطوائف والمؤسسات ، ففي حين نصب الباب العالي نفسه حامياً للسنة ، كانت ايران حامية الشيعة ، وفي حين كانت بريطانيا نصيرة الدروز ، كانت فرنسا حامية الموارنة . اما المسيحيون الاورثوذكس ، فقد اهتمت روسيا بهم ، وكان هذا بدء عهدها في التسلل الى الشرق .

وقد أثمر هذا التسلل بحيث قطفت بريطانيا وفرنسا ثماره في المنتصف الأول من القرن العشرين ، والآن جاء دور الاتحاد السوفياتي الذي ما لبث ان استمر في التسلل السري تارة والتدخل العلني طوراً ، فجنى منه تصدر اساطيل الاتحاد السوفياتي عرض البحر الأبيض المتوسط بعد ان حرم عليها اكثر من قرن . وكانت ، في كل مرة تعبر بها البوسفور تقام الدنيا وتقعد . اما الآن ، فقد بلغت الاساطيل السوفياتية مرفأ البصرة في العراق وعبرت مضائق هرمز وليس من يعترض .

فضلاً عن ان السياسة السوفياتية حققت لنفسها كسباً في الشرق لم تحققه يوماً سياسات سائر الدول ، فقد اصبحت الموانيء العربية ، من الجزائر الى الاسكندرية الى اللاذقية الى الحديدة الى البصرة ، مفتوحة

امامها . وهذا الانتصار للسياسة السوفياتية في الشرق العربي كان حصيلة اخطاء الغرب ودهاء الروس معاً .

ففي هذا الكتاب لمحة تاريخية عن التسلل الشيوعي الى الشرق الاوسط مع اسماء بعض الروّاد من عملائهم وخبرائهم اوردناها بموضوعية ودقة استناداً الى وثائق موثوق بها . علّ القارىء يجد فيها ما يروي الغليل وينهي الفضول .

المرحلة الأولى

علاقـــة روسيا بالشرق
الأساطيل الروسية القيصرية
في البحر المتوسط

١

بدأت علاقة روسيا بالشرق الاوسط في زمن العثمانيين . بدأت بشكل حروب مع تركيا العثمانية . كانت تركيا آنذاك مركز الخلافة الاسلامية . وكانت روسيا مركز البابوية المسيحية الاورثوذوكسية . وبصرف النظر عن سبب الاحتكاكات بين الدولتين التي كانت ترتدي الطابع التقليدي وعداوة الجوار التاريخية ، كان ثمة عداوة مزدوجة عنصرية ودينية تكمن وراء الكره المستحكم بين الشعبين . فالروسي مزيجٌ عنصري طوراني سلافي وقفقازي بينما العنصر التركي — العثماني عنصر تركي تتري مغولي في الاساس . والطرفان ينتميان الى القارة الآسيوية من هذه الناحية .

لقد ظهرت روسيا في الشرق بالتاريخ الذي ظهرت فيه الدول الاوروبية بما كان لها من نفوذ لدى الباب العالي ، وفي طليعتها انكلترا وفرنسا والمانيا والامبراطورية النمساوية — المجرية وايطاليا واسبانيا ، اي حوالي القرن الثامن عشر . وكانت في حروب متكررة مع جارتها الامبراطورية العثمانية . كانت تسمّى آنذاك امبراطورية القياصرة

الروس . كانت مهابة الجانب . وتمكّنت ، برغم وقوع معظم البلدان الشرقية العربية تحت حكم العثمانيين ونفوذهم ، تمكنت من ان تعقد اتفاقيات مع بعض الحكام المغامرين الذين استطاعوا ان يثبتوا نوعاً من السيادة في ظل الحكم العثماني ، ودخل الاسطول الروسي البحر المتوسط في القرن الثامن عشر ، اكثر من مرة .

وعندما بان ضعف الباب العالي ، اغتنمت روسيا الفرصة لتوسيع رقعة نفوذها نحو الجنوب ، حتى وجدت نفسها سنة ١٧٦٨ في حرب مع السلطنة العثمانية للمرة الثالثة في مدى قرن . وفيما كانت هذه الحرب قائمة ، استطاع الروس تحويل انتباه العثمانيين عن الجبهة في الشمال باثارة الاضطرابات في فلسطين وسوريا . فأصبحت شؤون هذه البلاد، للمرة الأولى، في التاريخ الحديث موضع نزاع دولي خطير .

وعندما وقع الخلاف بين ضاهر العمر الذي حكم جزءاً من فلسطين واحتل بلدة عكا وبين العثمانيين (١٧٥٠) كانت روسيا آنذاك تحارب العثمانيين . فوجدت في الخلاف القائم بين ضاهر وجيرانه ولاة دمشق وصيدا وطرابلس فرصة سانحة للتدخل . فأبحرت بعض البوارج الحربية الروسية الى شرق البحر المتوسط لتقوم بمناورات هدفها تشديد عزائم ضاهر ضد العثمانيين . ورأى ضاهر الظرف مؤاتياً لانشغال الاتراك في القتال على الجبهة الشمالية ، فأعار الروس اذناً صاغية . ووجد ان بينه وبين المملوك علي بك ، صاحب مصر ، ما

يجعل هذا الاخير يرحّب بفكرة القيام معه في عمل مشترك ضد والي دمشق . ذلك ان علي بك كان يطمح ، بعد ان انتزع السلطة في مصر ، سنة ١٧٦٣ ، ونادى باستقلاله عن الباب العالي في ١٧٦٨ ، الى فرض سلطانه ايضاً على فلسطين ولبنان وسوريا .

وبدأ الهجوم سنة ١٧٧٠ حين أرسل علي بك قائد عسكره محمد أبو الذهب للزحف مع ضاهر العمر على دمشق . وكان ان فرّ والي دمشق ، فاستسلمت المدينة بعد مقاومة قصيرة ، واصبح محمد ابو الذهب الى حين الحاكم المطلق في المنطقة ، فاستماله العثمانيون بعد ان عرضوا عليه تعيينه والياً على مصر ان هو انقلب على سيده .

على الاثر ، تحالف ابو الذهب مع العثمانيين وتخلّى عن ضاهر . ولما كان ضاهر العمر لا يزال يتمتع بتأييد الروس ، حاول الصمود في وجه العثمانيين بمفرده ، لكن معاهدة كوجك قينارجي الموقعة سنة ١٧٧٤ بين العثمانيين والروس انهت الحرب وكانت نذيراً بالقضاء على ضاهر .

وهكذا عادت البوارج الروسية الى قواعدها في البحر الاسود تاركة صديقها ضاهر وشأنه ، بعد ان سجلت روسيا على نفسها تدخلاً لجانب فريق ضد الآخر في قضية محض داخلية ، فشجعت بذلك تدخل الدول الاوروبية في منطقة الشرق الاوسط كلما سنحت لهم الفرصة .

وفي لبنان ، فقد كانت مختلف الطوائف اللبنانية ، طيلة العهد

العثماني ، قد ألفت التطلع الى معونة القناصل الاوروبيين وحمايتهم . فكان الروم الاورثوذكس ليس في لبنان وحسب ، بل في سوريا وفلسطين ايضاً من نصيب الروس . وفي حركة ١٨٤١ كان للقنصل الروسي والكهنة الروس يد مع طائفة الروم الاورثوذكس ككل مرة . كما كان القنصلان البريطاني والروسي يتدخلان تدخلاً سافراً بقضايا لبنان الداخلية ، لمنافسة فرنسا والنمسا .

كذلك ، كانت لروسيا مطالب في الخليج حيث كانت بريطانيا بالمرصاد ابداً . واذا كانت البوارج الروسية القيصرية قد ابحرت في المتوسط ، فأن النفوذ البريطاني في منطقة الخليج لم يتح لها مثل هذا المجال هناك .

اذن ، كان النفوذ الروسي القيصري موجوداً في الشرق الاوسط ، وبدرجات متفاوتة نسبة لنفوذ بريطانيا وفرنسا وسائر الدول ، وذلك قبل ان تصبح روسيا الاتحاد السوفياتي . وليس بالجديد ان يكون لروسيا يد او دور او اثبات وجود في المنطقة ، فان بيروت لا تزال تذكر بمرارة قصف البوارج الروسية لها . وقد قُدر عدد القنابل زمنذاك بستة آلاف قنبلة .

٢

هكذا فالعلاقات السوفياتية في الشرق الاوسط ليست بالظاهرة الجديدة . وهي ليست عارضة تاريخية او ظرفية . هي ، في الاصل ،

تسابق نفوذ وسيطرة تكمن وراءهما ، كما ألمعنا ، مشكلة عرقية — — عنصرية ابرزها احد رجال السوفيات البارزين جيورجي سفاروف اذ قال :

« ان روسيا جسر يصل الشرق بالغرب ، لأن اوروبا تنظر الى روسيا كونها نصف اسيوية ، بينما آسيا تنظر اليها كونها نصف اوروبية . لذا ، فبامكان روسيا ان تُدخل الى الشرق آخر نتاج العالم الغربي : إلا وهو الشيوعية الاوروبية . »

هوذا المبدأ الذي حوله يدور محور السياسة السوفياتية بالنسبة الى آسيا .

والعلاقات الجديدة التي تختلف اختلافاً بيناً عن العلاقات التي كانت روسيا تحاول ، في كل مرة ، تركيزها في عهد القياصرة ، لم تتبلور جيداً قبيل عامي ١٩٤٤ — ١٩٤٥ في الشرق العربي .

لقد تجلت ، بادىء ذي بدء ، باقامة علاقات دبلوماسية بينهـا وبين بعض البلدان العربية ، وذلك في اعقاب الحرب العالمية الثانية . وهذه العلاقات التي كان قد سبقها نشاط حزبي وعقائدي بوشر به عام ١٩٢٦ على يد بعض اليهود في فلسطين .

ويقول بعض البحاثة الخبراء في شؤون الشيوعية في الشرق الاوسط ان الاتحاد السوفياتي شرع بتوسيع شبكة نشاطه العقائدي والحزبي في منطقة الشرق الاوسط إثر الحرب الكونية الاولى ، اي خلال عـام ١٩١٨ — ١٩٢٠ . غير ان هالة من الريبة تحيط بهذا الاعتقاد اذا ما امعنا النظر في اوضاع روسيا الداخلية بين عامي ١٩١٨ و ١٩٢٠ ،

فترة الصراع على السلطة الداخلية والتخبط في ذيول ثورتها الكبرى ، حيث كانت تصطدم بالعراقيل والصعوبات في مواجهة عملية ضم بعض الجمهوريات والمقاطعات الكبرى في تركستان ومنطقة القفقاز .

اما من الناحية العلمية القائمة عليها الشيوعية ، فلم يكن للشرق ، في نظر ماركس وانكلز ، اي تأثـير او أثر ، لأنهما ركّزا آمالهما واهتمامهما في قلب الاوضاع في اوروبا ، وفي شمال اميركا ، لأن هاتين المنطقتين من العالم أكثر حساسية بالنسبة الى سائر اقطار العالم ، لا بل ، هما القطبان الجاذبان في العصر الحاضر .

كانت القضية تختلف بالنسبة الى لينين . فلينين برغم المامه الضئيل في شؤون الشرق لم يفته ذكر آسيا ، لا سيمـا الصين ، في بعض الخطب التي كان يلقيها على الشعب السوفياتي .

اما ستالين ، فقد اشار في كتاب له بعنوان « لا تنسوا الشرق » ، اشار الى اهمية الشرق بالنسبة الى الشيوعية واهمية المبادىء الشيوعية بالنسبة الى الشرق .

وعندما استتب الامر للشيوعية في الاتحاد السوفياتي ، شرعت السياسة السوفياتية تولي نوعاً من الاهتمام في شؤون جاراتها الدول القريبة المتاخمة لها ، كتركيا وايران وافغانستان ، مع العلم ان تركيا الكمالية (مصطفى كمال — اتاتورك) لم تكن قط شبيهة في نظامها بنظام الاتحاد السوفياتي .

ويلاحظ ان في الفترة الواقعة بين عام ١٩٣٥ وعام ١٩٤٥ ، تقدمت الشيوعية تقدماً ملموساً في الشرق العربي . ولا يزال الكثيرون

يعتقدون ان الشيوعية كانت وراء الثورات الكبرى التي عصفت في آسيا . في الواقع ، ان السوفيات اثرّوا كثيراً في طبيعة هذه الثورات دون ان يكونوا السبب المباشر في اثارتها او إشعالها، ناهيكم عما كان لتأثير الثورات الاوروبية في نفسية الشعوب الاسيوية بوجه الاجمال .

كان وقع الشيوعيين الاوائل ونصيبهم في الشرق المسلم لا يحملان سوى الخيبة واليأس . لقد لاقى مصطفى صبحي ، احد مؤسسي الحزب الاشتراكي التركي سنة ١٩٢٠ ، حتفه قتلاً في مدينة طرابازون . والثائر الايراني حيدر خان اعدم سنة ١٩٢١ رمياً بالرصاص . وكثيرون غيرهما اغتيلوا وذاقوا مرارة السجون .

كان اعضاء منظمة الكومنترن (الشيوعية الدولية) من الروس والمستشرقين البارزين ، امثال سفاروف المشار اليه ، ومعاونوه روي وهو هندي ، وسلطان آزاد وهو فارسي من باكو . كان هذا الاخير ملماً الماماً واسعاً بافكار ترمي الى تحقيق ثورة آسيا الكبرى . وكانت هذه الافكار تلاقي معارضة شديدة من قبل رفاقه السوفيات اعضاء منظمة الكومنترن .

ولم يسه الروس الشيوعيون عن إنشاء منظمات اخرى ثقافية وارهابية وتدريبية على هامش هذه المنظمة الكبرى . وجرى فيها تدريب نفر كبير من الضباط الشرقيين والغربيين على حد سواء . كان الغرض من التدريب تمكين هذه العناصر من القيام بثورات وانقلابات لمصلحة الشيوعية ، وعملت هذه المنظمات بجهود موحدة ونشاطات منسقة ضمن اطار الشرق .

وفي تلك الاثناء ، عهدت مهمة دراسة منطقة الشرق الاوسط خاصة وآسيا عامة الى شخص يدعى باولوفيتش ، كان عليه ان يضع اصبعه على مواطن الضعف ومواطن القوة في المنطقة الموكول اليه دراستها . وسرعان ما كشف عن الداء ووصف الدواء .

عملياً ، كانت نظرة باولوفيتش انه ينبغي للاتحاد السوفياتي ان يقف الى جانب هذه الشعوب ، وحثها على التحرر من ربقة الحكم الاجنبي ونفوذه، وانتهاز الفرص الكفيلة بانجاح تحررها، ليسهل عليه استجلابها استمالتها من خلال عوامل نفسية معينة وجرها لتقع في الفلك السوفياتي. ولم يحصر باولوفيتش نظرته هذه ضمن اطار آسيا ، بل شملت كلاً من اميركا اللاتينية وافريقيا باعتبار ان هذه القارات كانت لا تنفك وترزح تحت النفوذ او الحكم الاجنبي .

وبغية التغلغل في تلك المناطق ، رأى الشيوعيون ان لزاماً عليهم الاستعانة بخبراء مستشرقين لموافاتهم بدراسة موضوعية دقيقة عن المناطق المستهدفة . لكنهم عبثاً حاولوا ، فلم يتمكنوا من اللحاق بالغرب الذي كان سباقاً في هذا المضمار ، فبعث بعدد لا يحصى من المستشرقين الواعين خفايا المناطق المعنية وتاريخها . وكان بينهم العلماء الذين صنفوا المجلدات القيمة .

٣

هناك معضلة شغلت ولم تزل تشغل السوفيات عن الموقف المفترض فيهم اتخاذه من الحركات السياسية في الشرق . هل يسايرون الحركات

القومية والى اي حد؟ ام يعملون عـلى تطوير الحركات في الشرق الاوسط، والقفز بها توا من الرأسمالية الى الاشتراكية. ان مفهوم الرأسمالية هنا قد لا ينطبق تماماً على العهود القديمة السائدة في الشرق. فلهذا المفهوم مقومات تتنافى والحالات السائدة هنا التي يعبّر عنها بالموناركية (حكم الفرد) والفوضوية والملكية الدستورية والملكية التقليدية المحافظة.

كانت نظرة لينين ترمي، بادىء بدء، الى مسايرة الحركات القومية كخطوة تمهّد الى الوصول الى الشيوعية. وعارض الهندي روي هذه النظرة بالاصرار على ضرورة القفز بهذه البلاد توا من نظامهـا القديم الى الشيوعية، في حين خرج سلطان آزاد الفارسي بحل وسط يرمي الى ضرب عرض الحائط بالحركات البورجوازية القومية اذا مرّ عليها فترة عشر سنوات، دون الوقوع في احضان الشيوعية وحملها او اكراهها بشتى الاساليب المبتكرة على تبني الشيوعية، او مناهضتها بخلق حركة بروليتارية ثورية قوية تحل مكانها.

والجدير بالذكر ان منظمة الكومنترن ظلت الى ما بعد تاريـخ تأسيسها بسنوات ثلاث او اكثر، توجّـه انظارها واهتمامها الى البروليتاريا الغربية، الى ان هبّ ناربوتابكوف وهو محامٍ من تركستان وصرح في مؤتمر باكو الشهير:

«اود ان اذكر زعماء موسكو الى ان نداءاتهم لبروليتاريا الغرب منذ ثلاث سنوات لم تسفر عن نتيجة، وانه لمن الافضل ان تتخذ روسيا السوفياتية الشرق كحليف لها، وبالتالي ان تحصر اهتمامها في

تنظيم شؤون آسيا».

ويقتضي التنويه هنا الى ان المسلمين الذين تعاونوا مع المنظمـة الشيوعية العالمية هذه، وعملوا لمصلحتها، كانوا على بينة من ازدهار الشيوعية في آسيا، عاجلاً ام آجلاً. وكان شرطهم من هذا التعاون ان تأخذ الشيوعية بعض الاعتبارات الخاصة في الشرق بعين الاعتبار، ومنها بعض التقاليد والعادات الاسلامية التي تنبع من صميم الاسلام، والتي ما انفك المسلمون يمارسونها منذ قرون عدة.

ومن العسير تحديد القول بتمظهر الشخصية الشرقية في الوجود مقابل الشخصية الغربية. ولكن على ما يبدو ان انطلاق هذا المبدأ تحقق في كفاح الشرق من اجل التحرر من مقابض الغرب الذي سيطر عليه خلال القرن الاخير.

وسلّم المسلمون الذين عملوا مع السوفيات ولحسابهم بوجوب الافساح في المجال امام الشرقيين لتحقيق الحركات القومية دون اعتبار هذه الحركات الوطنية القصيرة الامد متطورة او متجهة نحو الشيوعية، بل دائمة ثابتة، ولكنها موالية للشيوعية العالمية.

وكان الحوار في مؤتمر باكو بين الاعضاء الروس يدور حول المبادىء الماركسية والجدلية القائمة عليها دون ان يكون لهم اي المام او اطلاع بشؤون الشرق. وانطلقوا من رواسب عقلية تقليدية مارسوها زمن القياصرة، فأشاروا الى ضرورة بث فكرة حرب مقدسة يشنها الشرق على الغرب كردة فعل تاريخية تأخذ طابع العنف والثورية.

وكان هؤلاء لا يرون، في قرارة نفوسهم، اي فائدة من تحالف

روسيا والشرق ، لا بل ، كانوا ينظرون الى اوروبا كمجال حيوي للتوسع يتطلعون اليها بنهم . وكانت مجالستهم والاستماع الى زملائهم الشرقيين من باب المجاملة وضرباً من ضروب التملق السياسي .

وتدليلاً على هذا الموقف البارد الجاف ، ان لم نقل المناوىء ضمناً ، كتب مكسيم غوركي الكاتب الروسي الى الكاتب البريطاني هربت ج ويلس ، وكلاهما قصصيان ، يسأله :

« ألست تعتبر ان تحالف روسيا والشعوب الاسيوية هو بمثابة تهديد للحضارة الاوروبية ؟ »

يبدو ان غوركي اصاب في سؤاله الهدف ، فكان جواباً على ما فعلته الشيوعية خلال الخمسين سنة الماضية . ويكفي التبصر بمواقفها السياسية العدائية من الصين اليوم لندرك مدى صحة نبؤة غوركي .

بدأت روسيا السوفياتية تخشى حليفتها الكبرى في آسيا ، ومن ضمنها الصين ، حتى تجسد هذا التخوف فأضحى خوفاً . وقد حذّر نابليون من خطر الصين منذ اكثر من ١٦٠ سنة اذ قال : « الويل للعالم آن يستيقظ الشعب الاصفر » .

ان يقظة الشعوب الآسيوية بالاضافة الى الشعوب الافريقية انما هي تهديد سافر ودائم للحضارة الغربية من اوروبية واميركية وشرق — اوسطية على حد سواء .

ولا يستطيع الباحث ان يغفل نداء السوفيات الموجّه في ٢٠ تشرين ثاني (نوفمبر) ١٩١٧ الى المسلمين جميعاً في الاتحاد السوفياتي خاصة وآسيا عامة ، يدعونهم الى مساندة الثورة الروسية ، على اعتبار ان

الثورة ، في احدى زواياها الاساسية ، كانت موجهة ضد روسيا القيصرية المسيحية . وقد تضمنت مثل هذه الدعوة الخطب النارية التي ألقاها كل من مصطفى صبحي وحيدر خان في مؤتمر باكو ١٩٢٠ .

ثمة سابقة في التاريخ لما حصل ويحصل في الشرق العربي وفي مصر بنوع خاص . كانت تركيا الكمالية اول دولة حليفة للاتحاد السوفياتي ، وعلى الرغم من ذلك كان مصطفى كمال يضطهد الشيوعيين . ومما يدعو الى الاستغراب حقاً في ذلك الوقت ولم يعد بالمستغرب اليوم . ان مقتل اول اصديق للروس مصطفى صبحي الثائر الشيوعي والعضو البارز في منظمة الكومنترن مع ١٥ شخصاً من رفاقه برصاص درك مصطفى كمال لم يحل دون عقد معاهدة صداقة بين الاتحاد السوفياتي ومصطفى كمال (اتاتورك) .

لقد ناور مصطفى كمال وساوم كثيراً مع السوفيات مما يوحي الى المطلع بالدور الذي لعبه عبد الناصر في مصر .

اما في ايران ، فقد كانت حركة جيلان سنة ١٩٢٠ حركة داخلية صرف ، قلما اثّرت فيها عوامل خارجية في البدء . ولكن في اعقاب شهر ايار من السنة نفسها ، جرت اتصالات بين العسكريين الروس واركان الحركة ادّت الى معاضدة الحزب الشيوعي لها ، واسفرت النتائج عن مقتل حيدرخان رئيس الحزب الشيوعي ، بعد ان اتهم بعمالته لبريطانيا .

وهناك حركة اخرى قامت في تبريز بقيادة الشيخ خياباني ، كان السوفيات ينظرون إليها بمنظار الريبة والحذر . وفي الواقع تضاربت

الآراء حول هاتين الحركتين حتى ان السوفيات انفسهم لم تتوافر لديهم معلومات وارقام واضحة عن الملابسات التي احاطت بهما .

٤

ليست العلاقة بين الشيوعية واليهود وليدة التفاهم او العفوية او المصالح او بعض العوارض السياسية ، انما هي اعمق من ذلك بكثير . انها ملتقى في ضرب المسيحية والكثلكة بنوع خاص . فثمة عداوة تقليدية بين هذه الاطراف . ثم هناك ملتقى بضرب الاسلام . فثمة عداوة تقليدية ايضاً بين هذه الاطراف . اضف الى ان هناك لقاءاً في المصالح والسيطرة والنفوذ . ويبدو من المفاهيم الحديثة ان ثمة تقارب بين الشيوعية واليهودية السياسية (الصهيونية) ، من حيث المبادىء والعقائد ووحدة الصف الى نقطة معينة لم يبلغها العالم بعد . وعندما يصل اليها العالم من جهة، والشيوعية واليهودية السياسية من جهة ثانية، آنذاك ، لا بد وان يتم الفراق بين الطرفين ، ولكن سيكون بعد فوات الاوان بالنسبة لسائر الشعوب ، والعرب في الطليعة ..

كل هذا بصرف النظر عن هوية ماركس صاحب الفلسفة الماركسية اللنينية وام لينين ، ورهط من الثوار الذين تعاونوا مع الثورة البولشفية الذين كانوا من اليهود . ثم ان اليهود شعب ديناميكي ميال الى العمل والعلم لا يعرف الاتكالية والقنوط . فهو شديد المراس ، مناضل ، لا يكل بفضل ما لاقى خلال الفي سنة من العذاب والتشريد والاضطهاد. لا تربطه بالماضي امجاد يتغنى بها وينام على اناشيدها ، انما وضع نصب

عينيه خلق مستقبل جديد .

في ضوء هذه المفاهيم وغيرها من عوامل سنشير اليها في حينه ، منها اقتصادية ومنها نفسية ، اضف اليها عامل الثقافة الواسعة لدى المهاجرين اليهود الآتين من الغرب وافكارهم الغربية ، لجأ السوفيات الى اعتماد يهود من فلسطين ، او بالاحرى في فلسطين ، للبدء ببث المبادىء الشيوعية في الشرق الاوسط .

واذا كانت ثمة دلائل تشير الى ان لينين ورفاقه لم يقروا مطلقاً بانشاء وطن يهودي في فلسطين ، وانهم بالتالي كانوا ينظرون الى اليهود المهاجرين من روسيا نظرة ازدراء بوصفهم هاربين من النضال على حد قولهم ، فذلك لا ينفي كون القوة الضاربة في الثورة الشيوعية كانت من افراد واساتذة يهود . ومن ثم إذا طال التفريق بين اليهود الروس واليهود الاوروبيين ، فذلك لا ينفي الواقع باعتماد السوفيات على اليهود كما اشرنا ، اكانوا غربيين ام شرقيين ، لا فرق .

ومن ثم ، تأكيداً لما نقول ، لو لم يكن الامر كذلك لما تسابق الاتحاد السوفياتي مع الولايات المتحدة للاعتراف بكيان اسرائيل ؟ لا بل لماذا اعتمد السوفيات اليهود لمساعدتهم في بث الفكرة الشيوعية في الشرق الاوسط ، وبالتحديد في الوقت الذي لم يكن اليهود في فلسطين سوى اقلية ضئيلة ؟

لا بد ان تكون وراء هذه العمليات دوافع سياسية لمسنا ابعادها في العشرين سنة الاخيرة فضلاً عن ابعاد آتية لم يلمسها بعد سوى المتبصرين بأغوار الامور .

٥

لقد اصيبت السياسة السوفياتية بالخيبة والصدمة بازاء الحركات المختلفة التي قامت إثر الحرب العالمية الاولى في كل من منطقة الشرق الادنى والشرق الاوسط . كانت هذه الحركات احلاماً قديمة تراود مخيلة النخبة في هذه البقعة الحساسة من العالم القديم الذي تفاعلت فيه شتى الحضارات والثقافات والديانات، وشهد مسرحه شتى الحروب . كانت غايتها اقامة

ا — عالم اسلامي Pan islamism

ب — عالم تركي عنصري Pan turanism

ج — عالم عربي Pan arabism

ولا يمكن ايفاء هذه الدراسة جانباً من حقها او استكمالها ، دون اعارة هذه الحركات المزيد من الاهتمام .

وحاول الكثيرون من الاعضاء البارزين في المؤتمرات الشيوعية التي كانت تعقد في دوراتها المتعاقبة اقناع زملائهم بسلك سياسة التسامح نحو هذه الحركات على اعتبار انها مرحلة اساسية متطورة نحو الشيوعية المنشودة في آخر المطاف .

واعتبر الشيوعيون ان الوحدة العربية هي ، بنوع خاص ، اقل خطراً من الحركات الثلاث اذا كان لا بد من تحقيق احدها . واظهر ستالين المشهور بعناده وتصلبه ليونة بالنسبة الى « العقيدة التي » ، على حد تعبيره ، « لا تتجاوب وعقيدتنا » ، على الرغم من الفيتو الذي

وضعه عليها المؤتمر السنوي وشجبها ، مع العلم ان موقف ستالين كان هذه المرة متناقضاً مع مواقفه السابقة ، إذ هاجم في مؤتمر ١٩٢٣ ، هذه الحركات واعتبرها رجعية ، ووصفها بأنها مجرد انحرافات نحو قومية ديمقراطية بورجوازية .

وعلى الرغم من كل ذلك ، ابدى السوفيات تخوفاً من الحركة الرامية الى انشاء عالم اسلامي بحيث يشمل حوالي اربعمائة مليون نسمة ، في زمن لم يكن لحركة القومية العربية شأن كما هو عليه اليوم ، اذ ان الحركة الرامية الى القومية العربية هي وليدة العقدين الاخيرين ، اي اثر حصول الدول العربية على استقلالها .

غير ان عاملاً واحداً جعل السوفيات يهادنون هذه الحركات ، الا وهو الهدف المشترك في محاربة النفوذ الاجنبي ، وبكلمة اوضح ، النفوذ الغربي ، لأن الغرب كان مسيطراً على المناطق التي ولدت فيها هذه الحركات وبدأت تترعرع . وكان السوفيات شبه مطمئنين الى ان هذه الحركات ، عند استيلائها على مقاليد الحكم ، ستتخذ صفة اليسارية والاشتراكية ، وستضطر حكماً الى الالتفات نحو الاتحاد السوفياتي ، وهكذا تكون لقمة سائغة في فاه العملاق الشرقي ، وتنتقل شعوبها بالتالي الى احضان الشيوعية بسبب تخلفها في جميع الميادين .

اذن ، رأى السوفيات أن في هذه الحركات بداية تحرّر من الحكم الغربي ، وبداية انطلاق باتجاه المعسكر الشرقي الذي يتزعمونه .

٦

وهكذا ، حصر الشيوعيون همهم واهتمامهم في عمليات استدراج الاحزاب القومية الى اليسار على اساس ان ينخرط الشيوعيون المحليون في الحركات الوطنية في البلدان الناهضة ، كالصين واندونيسيا ومصر وسوريا وغيرها . وكانت الحكمة من ذلك الا تنعزل هذه العناصر عن الجماهير وسائر القوى الشعبية . وشاء ستالين ان تتطور هذه الحركات من جبهات شعبية الى ثورة عمال وفلاحين عامة ، ولم يفته ان يعبّر مراراً عن أمنيته هذه ، ظاهرة لم تنطبق على الصين التي انتقلت من النظام الاقطاعي الى النظام الشيوعي مباشرة دون المرور بمراحل التطور الذي نوّه بها ستالين .

كان ثمة جبهات شعبية في كل من تركيا ومصر ايضاً . واقتضت المقارنة هنا بين الثورة التي حدثت في تركيا وتلك التي حدثت في مصر الملكية . انطلقت ثورة تركيا الكمالية من تحت الى فوق، اي من الشعب الى السلطة ، فخدعت الشيوعيين والسوفيات بينما في مصر ، حاولت الثورة ان تهبط من فوق الى تحت . وسعد زغلول كان ثائراً عنيفاً ، لكن ثورته لم تثمر بالنسبة الى الشيوعيين .

لقد تعثرت خطى الشيوعية في التسلل الى كل من آسيا وافريقيا . انما خطت بقدم ثابتة كما اعرب بخارين عن اعتقاده بأن هذا البطء الثوري لنذير بانفجار في آسيا سيؤدي الى اعظم واعنف ثورة عرفتها البشرية .

كذلك ، بالنسبة الى ثورة رضا شاه سنة ١٩٢١ ، فقد خيّب رضا

شاه بهلوي أمل السوفيات الذين ، على ما يبدو ، ايدوه بكل قواهم في البدء ، ولكن سرعان ما تدهورت العلاقات بين الروس والايرانيين ، وتطورت من سيء الى اسوأ ، لا سيما في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٢٦ و ١٩٢٧ .

كان الاتراك يرون في مصطفى كمال بطلاً قومياً، كذلك الايرانيون. فقد اعتبروا رضا شاه بطلاً قومياً موحِّد الأمة الايرانية الحديثة ، وكانوا بذلك على حق . اما السوفيات ، فلم يرضوا عن عهد رضا شاه لأنه ضرب عرض الحائط بمطاليبهم ، وكان من الطبيعي ان يحملوا عليه واصفين اياه بأنه تسنم مقاليد الامور في ايران بالخديعة وبمساعدة الانكليز ، وكان عهده يجسد عهد الاقطاع في اوجه .

غير ان الواقع كذّب اتهامات السوفيات لرضا شاه الذي كان عهده عهد النهضة الحديثة في ايران ، لقد كرّس الدستور، واطلق الحريات، ونزع حجاب المرأة، وانشأ السكك الحديدية التي تصل جنوب ايران بشمالها . وقد استفاد الروس مباشرة من وجود هذا الخط الحديدي الذي بموجبه تم شحن خمسة ملايين طن من السلاح والاعتدة قدمها الحلفاء للاتحاد السوفياتي خلال الحرب العالمية الثانية . ومن ثم اتهمه الانكليز بالتحيّز ، فآثر المنفى وترك العرش لابنه الشاه الحالي محمد رضا بهلوي .

اما عمنولاه خان الذي حكم افغانستان من سنة ١٩١٩ لغاية ١٩٢٩ ، فعقد مع الروس معاهدة كابول ، واستحق لذلك اطراء ستالين الذي قال فيه : « ان عمنولاه الذي كان يرئس حزب الشبيبة

الافغانية كان حزبه أكثر تقدمية من الحزب العمالي البريطاني » .

واتضح ان عمنولاه كتب يغازل لينين ويعلله بموافقته على امتداد الثورة في آسيا . وما لبث ان قام بزيارة الاتحاد السوفياتي مما زاد نقمة الانكليز عليه . كما اشتهر عمنولاه بعداوته للانكليز الذين كانوا السبب في خلعه . ونسب المراقبون مؤامرة خلعه الى البريطاني الشهير الكولونيل لورانس .

وتشير الدلائل الى ان فشل عمنولاه في الحكم يعود لكونه اصلى الزعماء المؤهلين للحكم عداوة واقصاهم عن الحكومة ، فكان ان تأزم الوضع وثار الفلاحون ضده في الداخل . كان عمنولاه عدو الاقطاع ، لكنه كان يفتقر الى الخبرة والمعـرفة في وضع المشاريع الزراعية والاصلاحية موضع التنفيذ ، ولم يكن شديد المراس في السياسة ومفاهيم الحكم .

لم يضع ذهاب عمنولاه نهاية للمآسي في افغانستان ، لا بل نشبت حروب اهلية في مختلف انحاء البلاد افضت في النتيجة الى تبوأ الحكم من قبل نادر خان الذي كان جنرالاً في الجيش الأفغاني . فنظر اليه الشيوعيون في البدء نظرة العطف على يساري يحذو حذو عمنولاه ، لكن سرعان ما خيبت الأيام الأولى من حكمه ظنهم ، فأماطوا اللثام عن هويته السياسية ونسبوا اليه التعاون مع الانكليز .

اما في تركيا ، فقد خضعت العلاقات السوفياتية — التركية لتأثيرات وتقلبات عدة نجمت عن كون مصطفى كمال كان يود ، في قرارة نفسه، التخلص من نفوذ الغرب وقيوده ، او على الاقل ، كان يود ان يخرج

من نطاق الانحياز الى عقائد الغرب . ويبدو ان هذا الاتجاه الذي بدا من مصطفى كمال حدا بالملك عبد العزيز آل سعود لدعوته لحضور المؤتمر الاسلامي الذي عقد في مكة ، صارفاً النظر عن مسألة فصل الدين عن الدولة في تركيا .

مع ذلك ، لقد ابدى الاتراك الكماليون تخوفهم من الحركات الديمقراطية ، وبذلوا كل جهد لخنق هذه الحركات والحؤول دون السماح لها بالتظاهر . وفي الآونة الاخيرة ، لم يكن موقف السوفيات من الكماليين عدائياً كما يتوهم البعض ، بل على العكس ، لقد كان فيه شيء من التحبيذ .

تلك كانت تطـورات المرحلة الاولى من التسلل الشيوعي الى الشرق الاوسط .

المرحلة الثانية

التسلل المستمر
قبيل الحرب العالمية الثانية

١

لم تكن للبلدان العربية أهمية في نظر السوفيات بالنسبة الى سياستهم في الشرق الاوسط . كانوا يعتبرون ان الشرق الاوسط مؤلف من تركيا وايران وافغانستان ، اي البلدان المتاخمة للاتحاد السوفياتي . وكانت نظرتهم الى العرب نظرة هتلر فيها شيء من الامتهان واللامبالاة. والحقيقة ان العرب عام ١٩٢١ ، كانوا لا يزالون جميعاً تحت الحكم والنفوذ البريطاني والفرنسي . وبرغم هذا الواقع الاليم ، كان لا مناص من اعتبار مصر زعيمة بلدان الشرق العربي التي كانت تتنازعها تيارات شعبية ضعيفة بالنسبة الى القضية التي يعلق عليها السوفيات اهمية ، ويعوّلون عليها ، تنفيذاً لسياستهم . وكانت قناة السويس محور السياسة المصرية ، لا بل ، الورقة التي تحمل مصير مصر في كفة القوى العالمية المتصارعة .

وعلى الرغم من علو كعبه ، لم يتمكن الثائر المصري سعد زغلول رئيس حزب الوفد ، من الاستيلاء على زمام الحكم ، ولم يتمكن من ان يصبح خليفته مصطفى النحاس نداً له في المسائل القومية . كـان السوفيات ينظرون الى سعد زغلول ، وهو على قيد الحياة ، بمنظار الريبة ، وقد نعتوه بالخائن المستسلم ليس لشيء ، بل لأنه لم يكن

شيوعياً من ناحية ، ولأنه كان صديقـاً حميماً للبريطاني رمساي ماكدونالد من ناحية ثانية . وكانوا يرون ان ليس ثمة صداقة بـلا ثمن ، فالمصلحة تطغي على كل شيء . ومن سخرية القدر ، انه عندما توفي ، شبهه المراقبون السوفيات بغندي ومصطفى كمال .

كان للسياسة السوفياتية هدف واضح . وهذا الهدف كان المهم بالنسبة اليها هي التي كانت تجهل تماماً اوضاع العالم العربي ، وحقيقة السياسات السائدة فيه . وتركز هذا الهدف في نضال البورجوازية ضد الانكليز . وبغية تحقيق ذلك ، افترضت في مصر الحاجة الى قيـادة تنطلق من طبقة اجتماعية اخرى لا تمت الى زغلول او النحاس او الوفد او سائر الاحزاب الوطنية بصلة .

ومع ذلك ، كان لا بد من تقارب بين السوفيات وهذه الاحزاب كخطوة تمهيدية لبلوغ الهدف الذي يسعون اليه . واثر المؤتمر السادس للشيوعية الدولية (كومنترن) المنعقد سنة ١٩٢٨ ، عمد السوفيات للمرة الاولى ، الى تحقيق تقارب وجهات النظـر بينهم وبين الحركات الوطنية المتأججة في مصر . فاعتبروا حزب الوفد حركة بورجوازية تسعى لمساومة الانكليز ، غير ان الطبقات الشعبية تقف حائلاً دونه ودون انجاح مثل هذه المساومة .

وهكذا ، بـدأ السوفيات يهتمون بمصر ، وشمل اهتمامهم فلسطين ، وكان لا بدّ لمبرر ملموس لمد يدهم . فاستعادوا املاكهم في الارسالية القيصرية التي كان قيصر روسيا قد اسسها في فلسطين عام ١٩١٤ . وها هم يرنون الى سوريا ، فأخذوا يطنبون بثورة ميسلون

التي وقعت ضد الفرنسيين سنة ١٩٢٥ ، لكن انبـاء الصين طغت سنتذاك على دعاوتها . وما لبث ان ارتفعت اسهم الامام يحيى ، امام اليمن ، والملك عبد العزيز آل سعود ، في نظر السوفيات والغربيين معاً ، الى درجة ان بعض عملاء الاستخبارات اشاروا في تقاريرهم الى ان هذين العاهلين مؤهلان لبسط حكمهما على الشرق العربي برمته . غير ان هذه المعلومات كانت مغلوطة وشبه اسطورية .

اما العراق ، فلم يكن لهـا اي ذكر في مخططات السوفيات ومحاولاتهم سنة ١٩٢٠ ، نظراً لعلاقة بريطانيا الوثيقة بالاسرة الهاشمية. والمؤتمر الاسلامي لم يأت بالنتائج المتوخاة بسبب الخلاف المستحكم بين الملك عبد العزيز آل سعود والملك فؤاد الاول على الخلافة . وحسماً للخلاف ، تقرب الانكليز من ابن سعود ، فاضطر الى عقد المؤتمر على صعيد ممثلين عن الدول الاسلامية ، ولم يكن له المفعول المرتجى .

ولا حاجة للاشارة الى موقف السوفيات العدائي من الدين الاسلامي ، وهذا من اولى البدهيات في المبادىء الشيوعية وسياسة العهد الذي اطاح بالدين وحكامه في عقر دارهم . نقول ذلك ليس على سبيل الدعاوة الفارغة ، لا بل نتهم بالسخرية والاساءة والتقصير اذا قلنا العكس .

وحسبنا ان نشير الى ما جاء في هذا الصدد في بعض مواد الدستور السوفياتي ، كذلك في الحملة الدعائية الواسعة النطاق ، تلك التي شنها السوفيات ضد الاسلام بواسطة بعض المنشورات وعنوانها :

« محمد لم يوجد مطلقاً » ، « الصيام في رمضان وعواقبه الوخيمة» « ضد الحجاب » .

والجدير بالذكر ان امثال هذه المنشورات ظهرت في صحيفة « الكافر » (Ateist) ، وفي صحيفة « بزبوزنيك » (Bezboznik) وفي « اللادينية » (Anti - Religioznik) . وقـام بكتابة هذه المنشورات رهط من الكتاب السوفيات . ولكنهم احسوا بأن هـذه الحملة الموجهة ضد الاسلام ستفقدهم شعبيتهم ، فأحجموا عن إثارتها في السنوات الاخيرة .

٢

لقد حملت التطورات منظمة الشيوعية العالمية (كومنترن) على تبديل سياستها في المؤتمر السادس المنعقد سنة ١٩٢٨ . واعترف رئيسها زنوفياف Zinoviev ١٩٢٣ ، الذي حل مكانه بخارين Bukharin في وقت لاحق ، ان التنبؤات السياسية التي قالت فيهـا المنظمة كافة لم تصب الهدف على الاطلاق . لقد ظن السوفيات ان الثورة العالمية ستبدأ في المانيا لتجتاح اوروبا ، الا ان الواقع كان العكس ، فقد شرعت بوادر الثورة تعصف في الصين ، لذا ، كان من الضروري احداث تغييرات في سياسة السوفيات وتوجيه اهتمامهم الى الشرق الاقصى بدلاً من اوروبا ، وهكذا استُبدلت المانيا بالصين .

لقد كان في نية تروتسكي البدء من الهند ، وذلك عن طريق مغامرة عسكرية ، اذ ان هناك وثيقة تثبت ان خبيراً عسكرياً قال له « ان ٤٠ ألف خيال ينطلقون من اورال بامكانهم ان يحتلوا الهند » . وهذه الفكرة

لا بد أن لها علاقة، في الاصل، بشروط المانيا الموضوعة على لينين مقابل المال الذي زودته به لتمويل الثورة الشيوعية في روسيا (١٩١٥) . وقد اشار البند الثامن من هذه الشروط الى انه يقتضي على الجيش الروسي ان يسير لاحتلال الهند .

ومن جهة اخرى ، لم يكن ستالين يؤمن ، لا بل ، يعلق اهمية كبرى على ثورة الصين ، وقد اضعفت فيه هذا الايمان خيانة تشنكا يتشك سنة ١٩٢٧ ، اما تروتسكي ، فقد كان ضد التعاون مع تشنكا يتشك ، وكان مع المعارضين له الذين وجدت فيهم الشيوعية العالمية اصدقاء . كان ماو طليعة هؤلاء .

وفي الفترة الواقعة بين ١٩٢٧ و ١٩٣٤ ، ظل ستالين متخوفاً من هجوم تقوم به الدول الغربية بقيادة بريطانيا ، الا ان استيلاء ادولف هتلر على زمام الحكم في المانيـا وتبوءه صدارة الاحداث والسياسة العالمية بدّد له هذا التخوف .

وتجدر الاشارة الى ان شعار « القضاء على الاستعمار » الذي قال فيه ودرو ويلسون رئيس الولايات المتحدة في مؤتمر فرساي (١٩١٩)، تبناه المؤتمر السادس للشيوعية العالمية . ويبدو ان سلطان آزاد راقتـه فكرة ويلسون فتبناها وقال فيها سنة ١٩٢٠ . وكما المعنا اليه ، لم تكن هذه الفكرة شيوعية برغم اعتمادها مـن بعض الشيوعيين الانكليز امثال داط Dutt وبنيت Benett وروثستن Rothstein . وربما كان هذا الاخير المانياً او انكليزياً من اصل الماني .

وفجأة، أطلت على المسرح في روسيا ١٩٢١ جماعة من الناس اطلقوا

على انفسهم اسم « الاورازيين » Eurasians ، ومعناه : الأوروبيون ـ الاسيويون على اعتبار ان الشعوب الروسية متحدرة عرقياً مـن سلالتين او طبقتين (Czargrad) القيصرغراد والمغول ، ومع ما في هذا الاعتبار من ضلال وتضليل، فقد كان من شأنه ان يقرب الروس من الشرق برغم بقاء هذه الفكرة في عقم دونما نتائج ايجابية .

وما لبث ان اسس السوفيات في الشرق الاوسط احزاباً شيوعية بين عام ١٩٢٨ و ١٩٣٠ ، في كل من فلسطين وسوريا والعراق ، ولهم ملء الامل بأن عهد الثورات التي عمدت هذه الاحزاب الى تغذيتها بدأت ريحه تعصف على الابواب .

وركزت المرحلة الثالثة من نشاط الشيوعية الدولية اهتمامهـا وحملاتها بواسطة عملائها واحزابها في الشرق ضد الانكليز والفرنسيين في تحرير هذه البلدان الواقعة تحت النفوذ الاجنبي ونيل استقلالها ، على ان تكون الخطوة الثانية تحوّل العهد الاستقلالي الى ثورة يقوم بها العمال، وبذلك تكون الشيوعية قد خطت خطوة مزدوجة لصالحها . الخطوة الاولى : التخلص من الغرب ونفوذه ، والخطوة الثانية : السيطرة على هذه الشعوب وضمها الى فلكها .

تلك كانت الخطوط العريضة للسياسة السوفياتية في الشرق العربي بنوع خاص ، اما في الغرب ، فقـد ركزت حملتها ضد الفاشية بشعارات يشتم منها انها تنحصر في محاربة الفاشية والنازية . وتحت ستار هذه الشعارات التي روجتها للتضليل ، استطاعت ان تتغلغل في مختلف المرافق الاوروبية وتكسب انصاراً وعملاء من مختلف الفئات والاوطان.

وكان من الطبيعي ان تقع الخيانة في صفوف هؤلاء فيقابلوا بالتنكر . وقد تم اعدام الكثيرين على يد السوفيات ، وتقتضي دراسة اضبارة كل واحد من هؤلاء قبل الحكم فيما اذا كان مذنباً أم لا . غير ان الوقائع تشير الى ان الشيوعية اعدمت عملاء لها بالامس بتهمة الخيانة او العمالة الازدواجية ، امثال : محمد عبد العزيز في مصر ، والشاعر التركي ناظم حكمت ، والسوفياتي بوريس شومياتسكي (Shumiatskii) وميخائيل فيرمان (Firman) احد مؤسسي الكوموزمول اي منظمة الشباب ، والهنغاري مديار (Madyar)، واياكوف تبير (Yakow Tepper) الملقب بالشامي نظراً لأنه زاول نشاطاً بارزاً في فلسطين ، ونعوم لشنبكي (Nakum Liskchinski) الملقب بـ « نداب » وقد قام بنشاط بارز في كل من فلسطين ومصر ، وافربوك (Averbuk) الملقب بـ « حيدر » وقد عمل في الحزب الشيوعي الفلسطيني وفي رومانيا. اما زميله برزلي (Barzilai) الذي عمل لمصلحة الحزب الشيوعي الفلسطيني ، فقضى بعد ذلك حوالي عشرين عاماً في معسكرات الاسرى .

كان هؤلاء ، بمعظمهم، يدينون بالستالينية ، فكانوا ضحيتها. ولاقوا حتفهم على طريقتها المشؤومة مع العلم ان الفضل يعود في ترويج الشيوعية في الشرق الاوسط اليهم . وقد كان شعار نشاطاتهم القضاء على الاستعمار ، فاضطرت الشيوعية العالمية الى أن تأخذ بنظرياتهم بعد ان كانت قد اهملتها بعض الوقت .

واثارت ثورة العرب في فلسطين، تلك التي حدثت سنة ١٩٢٩

جدلاً عنيفاً في قلب منظمة الشيوعية العالمية ، وسبب هذا الجدل هوية الثورة التي تضاربت حولها الآراء وتفاقمت الملابسات . لقد تبين ان العملاء المنوط بهم تزويد منظمة الشيوعية العالمية بالمعلومات انما كانوا ايضاً يعملون لحساب الانكليز .

ولم تتوثق العلاقات السوفياتية – العربية الا في الآونة الاخيرة ، اما في الفترة الواقعة بين ١٩٣٥ و ١٩٥٥ ، فلم تكن هذه العلاقات ودية . غير ان آراء « حيدر » المشار اليه احدثت تأثيراً على سياسة المنظمة . ومن هذه الآراء التي أدلى بها في المؤتمر السادس « ان العرب الذين ضربوا السلطنة العثمانية والالمان ضربة قاصمة بمعاونة الانكليز سيوجهون نفس الضربة للانكليز في المستقبل ، والعرب مؤهلون لأن يلعبوا دوراً ثورياً خطراً في منطقة الشرق الاوسط » .

والحقيقة ان ما قاله « حيدر » لينطبق ليس على العثمانيين والانكليز وحسب ، انما ينطبق ايضاً على السوفيات وكل نفوذ يحاول ان يكبح انطلاقهم او السيطرة عليهم ، وهذه من سنن الطبيعة التي خبرها تاريخ المنطقة .

لم تلاق آراء « حيدر » آذاناً صاغية لدى سائر عملاء الشيوعية ، فقد عارضه سلطان آزاد وابدى تخوفه من عدم أهلية العرب على القيام بالدور الذي اسنده اليهم زميله «حيدر» ، وذلك بسبب شقاقهم وتفرقة صفوفهم بصورة طبيعية مردّهما الى تعدد قومياتهم وتطورهم التاريخي وتباين شعوبهم وحضاراتهم » . واستطرد قائلاً : « ان الامل ضعيف جداً في إقامة وحدة فيما بينهم اذ قد تكون هذه الخطوة ، اذا ما

تحققت ، مؤامرة بريطانية بدلاً من ان تكون حركة ترمي بالفعل الى وحدة حقيقية .»

اثر هذا الحوار الجدلي ، شكل السوفيات سنة ١٩٢٩ لجنة غايتها وشعارها مقاومة الاستعمار تعمـــل بموجب التنظيم الشيوعي الحزبي وضعت مشكلة الوحدة العربية وتحررها من الحكم الاجنبي في طليعة الشؤون الدولية .

وتلت هذه الخطوة إقامة منظمات شيوعية سورية وفلسطينية . واثر اجتماع عقدته هذه المنظمات سنة ١٩٣١ ، اصدرت وثيقـة بعنوان : « مهام الشيوعيين في حركة الوحدة العربية » ، تضمنت ربط النضال الشيوعي بالمعارك القائمة ضد الاستعمار وضد العدو المشترك . وكانت المقررات الأساسية للاجتماع ترمي الى العمل على اقامة دول عربية مستقلة ، تسير فيما بعد باتجاه الوحدة العربية الشاملة .

وكان السوفيات اذكياء في استغلال هذه الشعارات التي كانـوا يعملون لها في كل مكان منذ ما ينيف عن اربعين عاماً ونسبوها لهم في الجولات الاخيرة عندما تبيّن ان الاستقلال العربي محتوم او لا بد منه .

وفي هذه الاثناء ، لاقى السوفيات صعوبات عندما عمّت الموجة الفاشية وتوجهت انظار العرب عام ١٩٣٤ الى روما وبرلين . فقد ابدى العرب اعجابهم بكل من موسوليني وهتلر ، ونظروا اليهما كزعيمين يجسّدان التحرّر من ربقة الانكلوسكسون والفرنسيين . وكانت ثورة رشيد عالي الكيلاني وليدة هذا التطلع (١٩٤١) .

ولم يتبدد هذا الامل لدى العرب الا عندما انتصر الحلفاء على

قوات المحور (المانيا وايطاليا واليابان) ، فاضطروا الى العودة مجدداً الى احضان بريطانيا . وهذا القول ينطبق بشكل افضل على زعمائهم وليس على شعوبهم .

كانت روسيا ، في تلك الفترة ، الى جانب اميركا الغائبة الكبيرة وكانت بريطانيا تبدو المتحدث الوحيد باسم العرب والاعراب . ففي عام ١٩٥٥ فقط ، عاد السوفيات للاهتمام مجدداً بالعرب بصورة جدية .

كانت مصر ، قبيل هذا العام ، تعتبر حزب الوفد العدو اللدود للشيوعية . وكان السوفيات يعللون انفسهم في كل مؤتمراتهم وفي كل ما يقولون ويكتبون بأن مصر ارض خصبة للشيوعية شرط ان تُنظم فيها حركة واسعة النطاق تضم الفلاحين والعمال . وكانت الغاية من انشاء هذه الحركة وضع العراقيل في طريق الحركات البورجوازية ، ذلك ان السوفيات كانوا يخشون سيطرة هذه الحركات على اتحـاد النقابات والنقابات الى الابد ، فتذهب آمالهم ادراج الرياح .

ووقع السوفيات في حيرة شديدة . اذ ليس ثمة حزب شيوعي في مصر ولا شيوعيون ، اذا ما استثنينا بعض الافراد المبعثرين في كل من القاهرة والاسكندرية . لكن الحيرة لم تدع السوفيات يفقدون الامل في الوصول الى غايتهم لا سيما وان عوامل الثورة الكامنة كانت موجودة لكنها كانت بحاجة الى قائد .

بدأ الشيوعيون في مصر يبنون افكارهم بواسطة بعض المنشورات سنة ١٩٣٠ ، فطاردتهم الشرطة ١٩٣٤ ، فخيبت آمالهم واحبطت مساعيهم ،

وتمكنت منهم الحكومة المصرية لان العميل الشيوعي محمد عبد العزيز ضللهم وغدر بهم . وقد اشرنا آنفاً كيف اعدمه الشيوعيون جزاءاً لخيانته .

وحظي حزب الوفد ردحاً من الزمن اعلن فيه مناهضته الفاشية بعطف السوفيات . وفي فلسطين ، لعب حمدي الحسيني دوراً لم يكن في النتيجة لمصلحة الشيوعيين ، اما في العراق وسوريا ، فقد تكاثرت الخلايا الشيوعية ، وسنة ١٩٣٦ ، شهدت توثيق العلاقات بينهما وبين السوفيات حيث برزت اليسارية كقوة شعبية ، فكانت نذيراً بتقدم الشيوعية تقدماً حثيثاً .

٣

ولكن ، يجدر بنا ان نعود الى الوراء بضع سنوات ، ففي آب ١٩٢٩ ، نشبت أعمال العنف والشغب والتخريب في فلسطين ، واحتدمت المعارك بين الفلسطينيين واليهود ، واستمرت عدة اشهر وقعت خلالها مئات الضحايا من الجانبين .

اما الشيوعيون الذين لا يتجاوز عددهم بضع مئات آنذاك ، كان من الطبيعي الا يخوضوا المعركة ، فقد آثروا الوقوف على الحياد . فاستغلوا المعارك لتعميم دعوتهم عن طريق منشورات تدعو الى السلم وتغمز الى معارضتهم التحريض العنصري باسم البروليتاريا العالمية .

واستغلت الصحافة الشيوعية هذا الحدث ، وراحت تتباهى بأن

الشيوعيين وحدهم في فلسطين دعوا الى الاخوة والتعقل ونبذ الاقتتال .

وفي اعقاب المعارك ، اصدر الحزب الشيوعي الفلسطيني بياناً مطولاً دعا فيه العرب واليهود الى التآخي والوقوف صفاً متراصاً في وجه المستعمرين والصهيونية والعرب واليهود الخونة . وقد اعيدت الكرة مرة اخرى سنة ١٩٣٣ ، غير ان الانباء العالمية حول تسنم هتلر سدة الحكم في المانيا طغت على انباء اعمال الشغب في فلسطين .

اما عندما تكرّرت المعارك في فلسطين واشتعلت الثورة بين سنة ١٩٣٦ و ١٩٣٨ ، كان السوفيات في عهد ستالين منصرفين كلياً الى الاهتمام في التطهير الشهير داخل روسيا . وقد تعرضت ثورة العرب في فلسطين لشتى الانتقادات السوفياتية واعنفها بعد ان تأكد السوفيات بأن العرب المناوئين للانكليز واليهود وجهوا انظارهم شطر برلين وروما وبدأ بعض زعمائهم الاتصال بهتلر وموسوليني وعملائهما .

على الاثر ، تأزمت العلاقات بين السوفيات والفلسطينيين والعالم العربي ، ذلك ان هؤلاء كانوا يقاسون حكم الانتداب الانكلو - فرنسي ، وكان من الطبيعي ان يتطلعوا الى الفاشية عدوة الدول المنتدبة مما اضطر السوفيات الى المهادنة والتذرع بالصبر مطمئنين الى غد هذه البلدان .

اما الصلات بين السوفيات وجيرانهم ايران وتركيا ، فقد كانت بطبيعتها اكثر متانة لأن هذين البلدين يتمتعان باستقلالهما ، ولهذا اثر في روسيا نفسها كونهما متاخمة لهما ويوجد بين الفرقاء تشابك حضاري او نوع من هذا التشابك الآتي .

واسفرت العلاقات الدبلوماسية بين الاتحاد السوفياتي وتركيا عن دعوة توفيق رستو وزير خارجية تركيا لزيارة الاتحاد السوفياتي سنة ١٩٣٠ ، وفي العام التالي، جاء ليتفينوف الى انقره كما زارها فوروشيلوف وشخصيات سوفياتية اخرى .

وفي هذه الظروف بالذات ، طلب اركان مجلس السوفيات الاعلى من خبرائهم وعملائهم محاولة غض النظر عن الاوضاع وطمس الحقائق الى حين خشية من اغضاب الحكومة الكمالية . وبالفعل ، توقفت الحملات المباشرة التي كان يشنها الروس ضد مصطفى كمال سنة ١٩٣٤ . حتى في الظروف التي تعاون فيها الاقتصاديون الروس مع تركيا لم يتذمروا من طباع مصطفى كمال الانتقامية، لا بل ، لم يظهروا استياءهم من انفاذ الالمان اقتصادياً الى قلب تركيا .

اما في صدد ايران وافغانستان ، فقد شهد مؤتمر منظمة الشيوعية العالمية جدلاً بيزنطياً بين عملاء السوفيات انفسهم عام ١٩٣٠ لا سيما حول انحراف هذين البلدين عن المخطط السوفياتي ، مما افضى الى تخلي السوفيات عنهما مؤقتاً بعد ان كانوا يعتبر انهما مفتاح الشرق .

وعلى الرغم من ذلك ، فقد استمرت العلاقات الدبلوماسية والتجارية بين البلدين عادية الى ان نشب خلاف سنة ١٩٣٢ بين رضا شاه والانكليز . فقد طالب رضا شاه بالبحر وبامتيازات النفط ، ففكّر السوفيات في استغلال هذا الخلاف ، ولكن سرعان ما تبين ان النزاع ارتدى طابعاً مادياً وليس عقائدياً ، اذ حصل رضا شاه في النتيجة على زيادة في عائدات البترول . فاضطر الروس الى اعادة النظر في موقفهم من

ايران بعدما وجدوها مستقلة سياسياً برغم سيطرة الانكليز على بعض مرافقها الاقتصادية .

ولوحظ حوالي عام ١٩٣٥ ان عاملاً آخر طرأ في ايران وتركيا وافغانستان، فقد حاولت النازية الهتلرية ان تجعل لنفسها موطىء قدم في الشرق الاوسط ، واخذ الخبراء الالمان يفدون الى طهران وكابول وانقره واسطنبول بتزايد ملحوظ . وبدأت المعركة تأخذ الطابع الاقتصادي بين المانيا من جهة ، وبريطانيا وفرنسا من جهة ثانية .

وهذه الحقبة من الزمن تلك التي مهدت للحرب ونشأت عنها معاهدة المحور – المانيا وايطاليا واليابان – سببت تضعضع الجهود الشيوعية في الشرق الاوسط ، لا بل في العالم بأسره ، فحملت السوفيات الذين كانوا في الصف الثاني على اعادة النظر في سياستهم الخارجية وتبني موقف يتلاءم ومصالحهم . وكان ان اثّرت هذه التغييرات تأثيراً عميقاً في السياسة الشيوعية التي طغت عليها المنازعات والمنافسات الدائرة بين معسكر النازية والفاشية من جهة ، وبين الرأسمالية والاشتراكية من جهة ثانية .

وامتدت هذه الحقبة من سنة ١٩٣٥ الى ١٩٤٥ ، فترة تجلى فيها فتور ملحوظ في العلاقات بين السوفيات والشرق الاوسط . وبالنظر لاستمرار حالة الحرب بينهم وبين اليابان من جهة ، وحالة العداء بينهم وبين المانيا من جهة ثانية ، فقد ركز السوفيات اهتمامهم في اوروبا والشرق الاقصى لدرء الاخطار الناجمة عنهما . اما منطقة الشرق الاوسط ، فقد احتلت في سياستهم المرتبة الثانية ، وظلت

تستوي في هذه المرتبة حتى ما بعد الحرب ١٩٤٥/١٩٤٦ حيث اخذ السوفيات يضغطون على تركيا ويحاولون عبثاً ان يكون لهم في ايران موطىء قدم ..

ومهما يكن من امر ، فالقول بأن الشيوعية اهملت مبادءها في المنطقة خلال تلك السنوات لقول يتنافى والواقع .

٤

استخدم السوفيات ستراتيجية وتكتيكاً خاصاً في سياستهم بالنسبة الى الشرق الاوسط ، فقسم المؤتمر السابع لمنظمة الشيوعية العالمية التكتيك نوعين : جبهة شعبية وجبهة قومية . وعلى الرغم من ضعف المنظمة في ذلك الوقت وضعف صلاحيات مقرراتها ، فقد ظلت هذه المقررات على غاية من الاهمية والخطورة كونها شكلت انعكاسات للسياسة السوفياتية في الشرق الاوسط .

وكان رمزي احد عملاء السوفيات في البلدان العربية يشدد على ضرورة تغيير السياسة الشيوعية بالنسبة الى البورجوازية العربية . ولفت نظر السوفيات مراراً الى سوء تقديرهم للطاقات الثورية غير الشيوعية المناهضة للاستعمار كالاحزاب المحلية ، وتقدم ، اسوة بسواه من العملاء ، باقتراح يدعو الى وجوب تحالف الشيوعية مع الاحزاب والهيئات والجبهات الوطنية .

وكان هدف الشيوعية الاول بعد حرب الحلفاء والنازية ينحصر في

محاربة الاستعمار البريطاني والفرنسي ضمن مخطط مدروس وفي إطار جبهة قومية على ان يبقى خارج الصدام مع المستعمرين ، الا ان تحدي هتلر للسوفيات اجبرهم على الدخول في الحرب الى جانب الحلفاء ١٩٤١ — ١٩٤٥ .

والخطر الذي شكله المحور على بلاد السوفيات جعلهم ينسوا لفترة من الزمن الشرق الاوسط ومشاكلهم فيه ، اذ لولا مساعدة الحلفاء لهم لتبدل مصير العالم وربما تعدلت الخريطة السوفياتية . والبرهان القاطع على صحة هذا الواقع ان الاتحاد السوفياتي لم ينشر في الفترة الواقعة بين عام ١٩٣٦ و ١٩٤٨ كتاباً واحداً يبحث او يتحدث عن شؤون هذه المنطقة في الايام الحديثة .

اما الصحافة السوفياتية ، فكان من البديهي ان تنشر من حين الى آخر بعض التعليقات ، تلك التي كانت ترمي الى تبرير بعض النشاطات السوفياتية التي كانت تحدث في المنطقة دون التطرق الى العوامل العقائدية والستراتيجية وابعادها في السياسة السوفياتية ، لا من قريب ولا من بعيد .

ويفسر بعض المراقبين هذا « السكوت » نتيجة التطهير الذي شمل عملاءهم وخبراءهم في الشرق الاوسط . وكان بين هؤلاء اعضاء بارزون في عدة مؤسسات كوزارة الخارجية السوفياتية ومنظمة الشيوعية العالمية ، والاكاديمي السوفياتية ، وجامعة المناضلين في الشرق ، تلك التي جرفها التطهير على نطاق واسع سنة ١٩٣٦ . وقد جرى التطهير في الوقت الذي كانت عمليات تطهير داخلية تشمل جماعة تروتسكي واتباع مبادئه .

وقد نجا البعض من عمليات التطهير وهم الذين افادونا من خلال كتاباتهم عن موجة التطهير الدامي، امثال دانتزيغ ، وجنان ، وفاتولينا، ولوتسكي، لقد كان فاتولينا خبيراً في الشؤون المصرية، ولوتسكي خبيراً في شؤون فلسطين .

وقد عانت السياسة السوفياتية تقلبات أثارت السخرية في الاوساط العالمية خلال سنة ١٩٣٩ و ١٩٤١ . لقد شنت حكومة الاتحاد السوفياتي حملة شعواء على الدول التي دخلت الحرب ضد المانيا وذلك اثر معاهدة الصلح التي عقدتها في آب ١٩٣٩ مع المانيا والمحور ، واتهمت هذه الدول وحكامها بأنهم خونة . ولكن سرعان ما بدّلت سياستها عندما هاجمها هتلر سنة ١٩٤١ ، اذ راحت تهاجم الدول التي لا تحارب المحور ووصفتها بأنها خائنة .

وان دلّت هذه التقلبات على شيء ، فانما تدلّ على ان الدول الحليفة ودول المحور جميعاً تعرضت الى حملة السوفيات ، وان بالتالي تذرُّع السوفيات بقول دزرائيلي « بأن لا صداقات دائمة ولا عداوات دائمة في السياسة » تذرعٌ لا يغفر لهم الاساءة والتعرض الى الآخرين .

والجدير بالذكر ان الاتحاد السوفياتي ظل لغاية خريف ١٩٣٨ يساند مفتي فلسطين الاكبر الحاج امين الحسيني الى ان تبين له بواسطة عملائه انه على اتصال وثيق بدول المحور .

اما سائر الزعماء العرب امثال نوري السعيد والنحاس باشا وعلي ماهر والملك عبدالله و رياض الصلح، فقد اعربوا عن ولائهم وتأييدهم للحلفاء واعلنوا الحرب على المحور ، في حين كان الشبان العرب يميلون

الى المحور لأنهم كانوا يأملون ان المحور سينتصر ويصفي القواعد الاستعمارية ويعيد لهم حريتهم واستقلالهم .

ولم تكن الاقليات في الشرق الاوسط لتشاطر الاكثرية هذا الشعور ، سواء اكان في مصر ام في سوريا ولبنان، حيث كانت هذه الاقليات اكثرية .

ولم يكن بالمستغرب ان يهادن الشيوعيون في مصر برغم انتقادهم لضعف حزب الوفد من المطالب الشعبية خلال الفترة الواقعة بين ١٩٣٦ و ١٩٣٩ . واعتبر خبراؤهم ان الحزب يخطو خطوات وئيدة نحو حياة اشتراكية بالنظر لبعض الاصلاحات الزراعية وزيادة انتشار التعليم . لقد كان حزب الوفد وراء المعاهدة المصرية البريطانية (١٩٣٦) التي اعتبرها الشيوعيون خطوة مباركة نحو الاهداف الاشتراكية . ناهيك عما لاقى حزب الوفد من تأييد من قبل السوفيات عندما اعلن مناوئته للمحور الالماني – الايطالي ، تمشياً مع السياسة البريطانية التي يمقتها الشعب المصري .

على الاثر ، تألف حزب باسم « مصر الفتية » يذكر « بتركيا الفتاة » ضم لفيفاً من الشباب المتحمس واشتهر بكفاحه ضد الانكليز . فحظي بعطف الشيوعيين وتأييدهم ، باديء ذي بدء ، ولكن سرعان ما شككوا فيه انه اداة كسواه واعتبروه مأجوراً للمحور على الرغم من ارتدائه طابعاً يسارياً .

اما المحور ، فلم يخف بدوره تأييده للعرب ونصرة قضاياهم القومية . وكانت اذاعة برلين، برغم انشغالها في بث الاخبار الحربية، لا

تنفك تخطب ود العرب وتحثهم على الثورة والتحرر من المستعمرين .

فكان ان تجاوب العراق مع تشجيع المحور ، وقام رشيد عالي الكيلاني بثورته في نيسان ١٩٤١ ، فأيدته الدبلوماسية الروسية واعترفت روسيا بحكومته . فغضب الانكليز من التصرف الروسي الذي وصموه بالتسرع والتعدي . ولكن سرعان ما تبدد تأييد روسيا لثورة الكيلاني ، ذلك ان المانيا هاجمتها بعد بضعة اسابيع . وفهم ان الكيلاني كان بدوره متعاوناً مع المحور ، فاستاء العراقيون ورافق هذا الاستياء ألاعيب الانكليز بعواطف الشعب ، فثار على الكيلاني واتباعه ، وانهارت الثورة مفسحة في المجال لسيطرة بريطانيا على العراق من جديد .

واحد الاسباب التي حدت بالسوفيات الى النظر بعين العطف الى ثورة العرب في فلسطين (١٩٣٦) لم يكن المواقف العربية بقدر ما كان لكسبهم لكون العرب اكثرية واليهود اقلية ، إذ ان الاتحاد السوفياتي كان يلزم جانب الاكثرية ويأمل ان تشمل الثورة سائر البلدان العربية كافة .

لكن السوفيات اعادوا النظر في موقفهم من الوحدة العربية اثر الحرب العالمية الثانية على يد زعماء كالحاج امين الحسيني ، ورشيد عالي الكيلاني ، وعزيز المصري ، وشكيب ارسلان . وكانوا يعتبرون هؤلاء عملاء فاشيين . واخذ موقفهم يرتدي طابـع العداوة عندما فكرت بريطانيا سنة ١٩٤٤ بانشاء جامعة عربية تستطيع ان تسيطر عليها عن طريق حكومات استقلالية ساعدت على صنعها .

وحصلت ظاهرة في العلاقات السوفياتية العربية بين ١٩٤٣ و١٩٤٥

لا يجوز تجاهلها بأي شكل من الاشكال ، اذ عقب انتصار الروس على المانيا ارتد كثيرون من البرونازيين والفاشيين العرب ، فأيدوا الاتحاد السوفياتي واصبح اعتبـارهم بروشيوعيين امراً لا مفر منه ، ومنهم من حبّذ الاحزاب الشيوعية ، ومنهم من انضوى فيها . ففي ايران مثلاً انضم هؤلاء الى حزب تودة .

وهكذا ، اثر الحرب غنم الروس موطىء قدم عقائدي وحزبي في كل من مصر وسوريا والعراق وايران . وكانوا يفتقرون مع ذلك الى التجمعات الشعبية والجماهيرية القادرة على تحريك الشارع والقيـام بالاضطرابات والثورات .

وتبين من الاحصاءات الحزبية آنذاك ان لهم في الهند ٢٠٠٠ عضو من اصل ٤٠٠ مليون نسمة سنة ١٩٤٢ ، وفي اندونيسيا ٢٠٠٠ عضو بعد ثورة ماديون اصبحوا غب مرور ٨ سنوات ١,٣٠٠,٠٠٠ عضو ، اما في سوريا ، فقد كان عدد الشيوعيين لا يتجاوز الالف شخص عند قلب الشيشكلي سنة ١٩٥٤ . غير انهم ما لبثوا ان اضحوا اقوى حزب سنة ١٩٥٧ ، وكادوا يسيطرون على الحكم في سوريا لولا الاتحاد المتسرع الذي حصل بين سوريا ومصر ١٩٥٨ ، وفي العراق كانت ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ دليلاً جازماً على مدى شعبيتهم وقوتهم هناك .

وكان العرب الاتكاليون ينظرون الى دولة قوية بعد انهيار المحور يجسدون فيها آمالهم لازالة النفوذ البريطاني . وكان في نظر هؤلاء ان الاتحاد السوفياتي ليس دولة استعمارية لان هؤلاء لم يكونوا قد رأوا بعد الجيوش والخبراء السوفيات في بلدانهم ، انما كانوا قد ألفوا رؤية

الفرنسيين والانكليز . غير ان الجيش الروسي كان ولا يزال في دول شرقي اوروبا ، في هنغاريا ورومانيا وبولونيا وتشيكوسلوفاكيا وبلغاريا والمانيا الشرقية .

وهذا البعد في مناطق النفوذ والاحتلال الروسي أبعد عن الفئات الشعبية العربية فكرة روسيا استعمارية . وكان من البديهي ان يكون كذلك، وان لايشعر العرب بوطأة السيطرة الروسية الى ان تأتي الظروف ويذوقون طعمها .

المرحلة الثالثة

فيما بين المرحلتين
في لبنان وسوريا

١

بدأ التسلل الشيوعي الى لبنان وسوريا من فلسطين ، بادىء ذي بدء ، على يد خبراء شيوعيين في الشيوعية الدولية . وشجعهم في ذلك عاملان ، عامل العنف وعامل الفكر . لقد تجلى عامل العنف في الثورات التي حصلت في جبال العلويين ثورة الشيخ صالح العلي ، وثورة ابراهيم هنانو في حلب ، وثورة جبل الدروز ، والمعارك الدامية في دمشق وبيروت . ورأى السوفيات ان هذه الشعوب ناهضة خلافاً لما اشار اليه بعض خبرائهم في تقاريرهم .

اما عامل الفكر ، فقد تبلور في مقالات واشعار بعض اللبنانيين الخياليين الذين راحوا يتغنون بالالم والبؤس والفقر ، فكانوا انعكاساً لثقافة فرنسية ضمت الشعراء فيكتور هيغو والفرد دي موسيه والفونس دي لامرتين ، وراح بعض المثقفين اللبنانيين يتباهون بالتعبير عن هذا الألم امثال : الياس ابو شبكة ويوسف يزبك وميشال زكور وسعاد الحكيم ونقولا حرب وفؤاد الشمالي ومرغريت سمعان واسكندر الرياشي [١] .

ومن خلال هذين العاملين الثوريين ، تبين لعملاء السوفيات في

---

(١) راجع قدري قلعجي « تجربة عربي في الحزب الشيوعي » دار الكاتب العربي .

المنطقة ان لبنان وسوريا بلدان تربتهما خصبة لنثر بذور الشيوعية فيها .

ويبدو ان اول اتصال خارجي حصل مع هؤلاء تجلى في الاتصال المباشر بين « جوزف بيرجر » وهو يهودي بولوني من خبراء الكومنترن في شؤون الشرق الاوسط ويوسف يزبك . وتم هذا الاتصال اثر مقال كتبه هذا الاخير ، واورد بشكل صافي النية عبارة « نصير العمال والفلاحين » . اذ كان يعتبر نفسه اشتراكي النزعة .

وعلى الاثر ، شجع بيرجر يوسف يزبك على انشاء فرع للحزب الشيوعي في فلسطين ضم الى صفه بعض الشباب لا يتجاوز عمر احدهم العشرين او الخامسة والعشرين ، هم : فؤاد الشمالي والياس قشعمي وبطرس حشيمي وفريد طعمه وشفيق مظهر . وكان اسم الحزب «حزب الشعب» .

واخذ بيرجر يجمعهم ويلقنهم المبادىء الاشتراكية الشيوعية كما علمهم نشيد الانترناسيونال (الاممية) . ثم انتخب يوسف يزبك سكرتيراً عاماً له ، واعتبر الحزب تابعاً للحزب الشيوعي اليهودي الكائن في حيفا . وكان على ما يبدو اول حزب شيوعي في البلدان العربية .

وهكذا ، بدأ الحزب الشيوعي يهودياً وسرعان ما فرقت الأحداث بين العناصر الاعضاء ، اذ لم يعد ثمة مجال لبقاء العرب الى جانب اليهود ، فألفوا جناحاً حزبياً دعوه « عصبة التحرر الوطني » .

وقد استُبدل بيرجر بيهودي آخر يدعى « تيبر » ، كان هذا كاتباً بارعاً وخبيراً في شؤون الشرق الاوسط ، مكث في لبنان ردحاً من

الزمن حيث اجتمع مراراً باعضاء حزب الشعب . وكان لهذا الحزب جريدة اسمها « صوت الشعب » تنقل الى القراء مقالات نارية العبارة وتلهب الصدور حماسة . كما كانت تنشر مقالات تردها من خارج لبنـــان .

لقب الامن العام الفرنسي الشيوعيين برجير وتيبر بعيني موسكو . فكانا موضع مراقبة مشددة ، وانتهيا بالمطاردة والطرد من الاراضي اللبنانية والسورية .

لكن الشيوعية لم تيأس ، فقد بعثت بعميل آخر كان من رجالات الشيوعية الدولية البارزين كما مرّ بنا. وقد أرسل لاستئناف جهود زميليه بيرجر وتيبر بعد ان اصاب نجاحاً لا بأس به في تنظيم الحزب الشيوعي في فلسطين .

والجدير بالذكر انه في سنة ١٩٢٥، تم لأول مرة احتفال بعيد العمال في اول ايار في لبنان .فألقيت الخطب ، ووزعت المناشير ، واعتقل بعض الشباب . وقد تضمنت المناشير الشعارات التالية : « فليحي اول ايار . فليحي الانترناسيونال الثالث ، فلتحيا موسكو ، فلتحيا ذكرى لينين ، فليحي الحزب البولشفيكي في لبنان وسوريا وفلسطين » .

كان الشعب اللبناني يقرأ للمرة الاولى عبارات من هذا النوع ، وبرغم تأسيس حزب العمال سنة ١٩١٩ – ١٩٢٠ لمؤسسه حنا ابي راشد الذي نفاه الفرنسيون فيما بعد على اعتبار انه عنصر خطر يهدد امن الدولة وسلامتها ، اختار ابو راشد مصر ارضاً لمنفاه ، وكان ابو راشد رئيساً لحزب العمال ، لكنه لم يكن على صلة بالشيوعيين الذين

لم يكونوا قد وجهوا اهتمامهم بعد الى الشرق الاوسط .

وكان يوسف يزبك، بتأثير من جريدة لومانيته (**L'Humanité**) الناطقة بلسان الحزب الشيوعي في فرنسا قد اسس في بيروت صحيفة باسم « الانسانية » . وما ان صدرت منها بضعة اعداد حتى صادرتها السلطات الفرنسية ، ومن سخرية القدر ان يوسف يزبك فر الى فرنسا واجرى اتصالات هناك مع ادارة جريدة « لومانيته » والزعيم الشيوعي الفرنسي مارسيل كاسان ، وحثه على ضرورة مساعدة الشيوعيين في لبنـــان .

وفي سنة ١٩٢٦ ، تم التعارف بين رجل ايراني واثنين من الارمن ارتين مادويان وهيكزون بوياجيان ، فأوهمهم الايراني بأنه يريـــد الانتساب الى الحزب الشيوعي ، وما هي الا ايام حتى وشى بهما ، فألقي القبض على مؤسسي الحزب مع بعض اصدقائهما خلال أحد الاجتماعات وزجوا جميعاً في السجون .

وفي اواسط سنة ١٩٢٦ ، اصدرت الهيئة التأسيسية للحزب قراراً يقضي بفصل يوسف يزبك من الحزب (وتجدر الاشارة الى انه لا يزال على قيد الحياة وقد عنى في الادب والتاريخ وتخلى نهائياً عن افكاره القديمة وحزبيته) .

٢

في هذه الاثناء ، بدأت عيون الفرنسيين تتفتح على الاشخاص

المشبوهين القادمين من فلسطين ، لا سيما ، اليهود . ذلك ان بريطانيا وفرنسا كانتا في خصام دائم لا يحد منه سوى عدو مشترك يواجههما من حين لآخر . وما ان يتوارى خطر هذا العدو المشترك حتى يعود الخصام بينهما ويبلغ اوجه .

كانت بريطانيا تخطط لاحلال اليهود مكان العرب ، او بالاحرى ، لانشاء دولة يهودية عربية في فلسطين . وكانت لا تعدم وسيلة لتحقيق هذا الهدف . في حين كان الفرنسيون غير راضين عن هذه السياسة التي ترمي الى تغيير الوضع الراهن للقدس بنوع خاص ، فالكثلكة التي تتزعمها فرنسا من الناحية السياسية لا تتخلى بسهولة عن الاراضي المقدسة لليهود .

كما كانت فرنسا حريصة على الوجود اللبناني ، وكانت تخشى تنفيذ المخطط البريطاني في فلسطين على حساب جزء من الاراضي اللبنانية . وللدلالة على ذلك عندما هبت موجة تهدف زمن الانتداب لشراء اراضي لبنانية من قبل بعض الاثرياء اليهود ، حظر المفوض السامي دي مارتال هذا الاجراء قائلاً عبارته الشهيرة : « ان اليهود الذين عبروا البحر الاحمر لن يعبروا الناقورة » لا بل ، حظر مجيء اليهود الى لبنان ، والناقورة هي احدى قرى الحدود التي تفصل بين لبنان وفلسطين (اسرائيل حالياً) .

ازاء هذه التضييقات التي ذهب ضحيتها بعض عملاء الشيوعية ، كمامرّ بنا ، رأت موسكو انه من الافضل ربط الحزب الشيوعي اللبناني والسوري توأً بالحزب الشيوعي الفرنسي . فالهدف في النتيجة واحد ،

الا وهو خدمة الاهداف الشيوعية السوفياتية وتحقيق الاممية .

وهكذا ، جاء الى لبنان في اواخر سنة **١٩٣٠** احد كبار الشيوعيين الفرنسيين ، ويدعى « ديزوسكلاد » فاجتمع بقادة الحزب في كل من لبنان وسوريا . وتم الاتفاق بين جميع الفرقاء على ان يكون الاتصال المباشر مع الحزب الشيوعي الفرنسي بدلاً من الحزب الشيوعي في فلسطين ، وعلى ان يكون ، بايجاز ، الحزبين اللبناني والسوري ، تابعين للحزب الشيوعي الفرنسي ، باعتبار ان لبنان وسوريا لا يزالان يخضعان الى الانتداب الفرنسي . وهذا الاجراء أسلم لعناصرهما من ملاحقة السلطات الفرنسية لهم .

وكان من الطبيعي ان يعد أركانهما بكل مساعدة ادبية ومادية يستطيع الحزب الشيوعي الفرنسي ان يقدمها . وفي الواقع ، تدفقت المساعدات المالية على الحزبين ، كما وان الحكومة الفرنسية لم تمعن في مضايقة رجالهما بصورة جدية .

وكان لا بد من مرحلة انتقال دقيقة . فقد أوكل تنفيذ هذه المرحلة الى يهودي بولوني يدعى نعوم لتيفنسكي . وراح هذا الاخير يجوب برفقة زوجته الحسناء لبنان وسوريا وفلسطين ، يهيء الاجتماعات وينتقي الشبان ، فيرسلهم الى موسكو للانضمام الى « معهد تدريب الشيوعيين الشرقيين . » وكان يشرف على هذا المعهد الذي على ما يبدو تدرّب فيه بن غوريون ايضاً ، مانويلسكي احد اركان الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي .

وكان ثمة خيار هنا . فقد آثر البعض الذهاب الى تل ابيب ، ومنهم

فرج الله الحلو ، الذي امسى ركناً بارزاً في الحزب الشيوعي ومات في سجون سوريا . وفي سنة ١٩٣١ ، اثر نشاط بارز قـام به الحزب الشيوعي في كل من لبنان وسوريا ، جرت موجة اعتقالات زجت بالاقطاب الشيوعيين في السجون ، فأحيلوا الى المحكمة العسكرية ذلك انه كان بين المتهمين شاب ارمني متطوع في جيش فرنسا . ولما لم يجرؤ احد على الدفاع عنهم سوى المحامي اميل قشعمي بسبب صلة القرابة التي تربطه بأحدهم الياس قشعمي ، لجأ المتهمون الى مؤسسة «سكورروج انترناسيونال » فأوفدت للدفاع عنهم المحامي والنائب الشيوعي المعروف اندره بريتون (لقد تخلى اندره بريتون عن الحزب فيما بعد) .

وسبب هذا النشاط البارز الذي حمل السلطات المنتدبة علـى التحرك ضد الشيوعيين انتساب خالد بكداش في سوريا الى الحزب الشيوعي في العام الذي سبق ، اي سنة ١٩٣٠ . ورافق انتسابه نشاط ملموس في مختلف الحقول بدءاً من داخل الحزب . كان خالد بكداش احد اعضاء الكتلة الوطنية في دمشق . فاستقال منها وانضم الى الحزب الشيوعي بعد لقاء تم بينه وبين بعض الشيوعيين اللبنانيين الأرمن.

فقد اعجب العميل ليتفنسكي بجرأته وذكائـه وارسله توا الى موسكو حيث درس اسس الماركسية اللينينية الستالينية على ايـدي الشيوعيين السوفيات . وكان عطف الروس وحدبهم عليه في كل مرة يدعم مركزه اذا ما تعرض لأي تهديد من قبل الحزب . وبعد ان كان شديد التعلق بفؤاد الشمالي السكرتير العام للحزب انقلب عليه فجأة ، واخذ ينافسه على زعامة الحزب اثر عودته من موسكو . ثم اتهمه

بالعمالة للامن العام الفرنسي ، وايـده في ذلك ارتين مادويان في بيروت ، ورفيق رضا في طرابلس ، حتى تمكن في النهاية من اقصاء فؤاد الشمالي من سكرتارية الحزب والحلول مكانه . ثم انتسب الى الحزب فرج الله الحلو ونقولا شاوي ومصطفى العريس وضمهم بكداش الى كتلته . وظلت هذه الكتلة زماناً طويلاً توجه الحزب .

واثر اعتقال ليتفنسكي وابعاده عن الاراضي اللبنانية والسورية، اوفد السوفيات شيوعياً فلسطينياً اسمه محمود المغربي الجزائري عرف باسم « ابو داوود » . ولما احست به السلطات الفرنسية ايضاً ابعدته عن اراضيها .

٣

كان المغربي على ما يبدو آخر عميل خارجي امّ البلاد اللبنانيـة والسورية، اذ بعده خلا الجو لخالد بكداش الذي تمكن من ان يفرض سيطرته على الحزب الشيوعي . وكما رأينا ، في عهد خالد بكداش ، انتقلت تبعية الحزب الشيوعي من فلسطين الى باريس . وبدأ يتلقـى التعليمات والاوامر والاموال من الحزب الشيوعي الفرنسي . وارضاءاً للفرنسيين غير الشيوعيين واستجلاباً لخاطر المسؤولين عمد الحزب الشيوعي اللبناني – السوري الى اصدار نشرات تتضمن لمحات مجيدة عن تاريخ فرنسا والحركات الثورية التي شهدها ، وتمادى الحزب في التملق الى الفرنسيين باقامة الحفلات والمهرجانات في ذكرى الثورة

الفرنسية والقاء الخطب تمجيداً للديمقراطية الفرنسية . كما أيد خطوات فرنسا في ما عرف بمشروع معاهدة ١٩٣٦ التي تضمن لفرنسا مركزاً ممتازاً في لبنان وسوريا .

ويقول رفيق رضا العضو السابق في اللجنة المركزية تعليقاً على هذه المواقف ما يلي :

«كان الحزب الشيوعي الفرنسي يتطلب من قيادة الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان ان تتبنى مواقفه السياسية من قضية سوريا وقضايـــا الجزائر وتونس ومراكش حيث كانت الحركات الوطنية على اشدها في هذه البلدان العربية ، وحيث كان الحزب الشيوعي الفرنسي ينسق سياسته العامة وفقاً لسياسة الحكومة الفرنسية ، ويدعو الى تجنب خلق المصاعب في طريقها ، وقد كان يؤيدها ويدعمها ، ولذا كان يتطلب من الاحزاب الشيوعية في شمال افريقية عموماً ، ومن الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان خصوصاً، سياسة منسجمة مع سياسة هذه، ومن هنا انبثقت سياسة الخنوع والخيانة والتبعية للحزب الشيوعي في سوريا ولبنـــان » .

وثمة تأكيدات وردت في كتب وبيانات اعضاء شيوعيين تخلوا عن الحزب او فصلوا منه فيما بعد تفيد بأن الحزب الشيوعي كان يتلقى الاموال الطائلة من الخارج ، كما وردت اسماء البعض كاميل واوسكا ومولر ، وليس بمستغرب ان تكون هذه الاسماء مستعارة .

ويبدو ان الشيوعي السابق رفيق رضا كان اول مندوب للحزب الشيوعي اللبناني السوري لدى الحزب الشيوعي الفرنسي في باريس ،

كما تم تبادل البعثات الشيوعية ، تعزيزاً للعلاقات بين الشيوعيين ، وقد قدم الى كل من لبنان وسوريا (١٩٣٧) النائبان الفرنسيان الشيوعيان جريزا وباريل حيث اقيمت لهما استقبالات حافلة اشترك فيها بعض السياسيين املاً في الوصول الى مراكز مرموقة .

وكان من الطبيعي ان يميل الحزب الشيوعي كما تميل سياسة الاتحاد السوفياتي . وماكاد الاتحاد السوفياتي يعقد ميثاق عدم الاعتداء مع المانيا النازية ويعلن هتلر الحرب على الحلفاء حتى امتنع الشيوعيون في فرنسا عن محاربة الهتلرية ، لا بل، اخذوا يقومون بأعمال الشغب والتخريب، وفر موريس طوريز من الجيش الفرنسي الى المانيا ومنها الى الاتحاد السوفياتي . وبديهي ان تقف الاحزاب الشيوعية في العالم اجمع اذذاك ولو سراً الموقف نفسه من النازية وهي تأتمر بأوامر موسكو .

لكن الحزب الشيوعي في لبنان وقع هذه المرة في الفخ . ووقع اركانه في الحيرة والارتباك والخوف . فلا هم يستطيعون الجهر بمواقفهم المناهضة للفرنسيين ،ولا هم قادرون على الجهر بمواقفهم المؤيدة لفرنسا الدولة الحاكمة، كما كانوا لأيام خلت يتغنون بالثورة الفرنسية والديمقراطية الفرنسية .

فما كان من الزعماء الا ان تواروا عن اعين السلطة . وهادنـــوا السلطات الفرنسية . واختنق صوتهم برغم بعض الصيحات التي علت من حين الى آخر ، ووريقة كانت تصدر بين الفينة والفينة تأييداً لفرنسا في حربها ضد النازية او فيما يشبه التأييد .

واستمرت الحالة على هذا المنوال الى ٢٢ حزيران ١٩٤١ ، تاريخ

اعلان المانيا الحرب على الاتحاد السوفياتي ، وانضمام هذا الاخير الى صف الحلفاء . آنئذ تنفّس الحزب الشيوعي الصعداء، واتيح له فرصة العودة الى الظهور من جديد . فقوبل هذا الاستغلال باستغلال من جانب السلطات الانكلو – فرنسية لمواجهة الدعاوة النازية التي كانت الأكثرية العربية من الطبقات الشعبية متأثرة بها ، كما مر بنا .

وعلى الاثر ، تألفت لجنة تابعة لمحطة الاذاعة اللبنانية ضمت من الشيوعيين عمر فاخوري ورئيف خوري وقدري قلعجي. (تخلى قلعجي فيما بعد) وكان خالد بكداش يطلق بين الحين والآخر العنان ليراعه لمهاجمة النازيين اصدقاء الامس في جريدة صوت الشعب الناطقة باسم الحزب الشيوعي ، ومما قاله ذات يوم : « لقد أصبحت إبادة النازيم هدف الانسانية الاكبر ، واصبحت لنا معشر العرب الهدف القومي الاكبر وفي سبيله نسير مع الجميع ونمد يدنا الى الجميع » ...

وظن الشيوعيون انهم يستطيعون الاستيلاء على الحكم . غير ان الجبهات الوطنية كانت لهم بالمرصاد ، فاضطروا الى مسايرتها ، وبرزت هذه في المواقف المصيرية . اما في الانتخابات التي حصلت سنة ١٩٤٣ في كل من لبنان وسوريا ، فلم يوفق الحزب الشيوعي ، وقد ترشح بعض افراده فنالوا عدداً من الاصوات لا يضمن لهم النيابة .

وما لبثت ان انتهت الحرب ، وخرجت الدولة السوفياتية مع الحلفاء منتصرة منها، فقويت شوكة الشيوعية نوعاً ما . وكان ان عينت موسكو سنة ١٩٤٤ دانيال سولود وزيراً مفوضاً لها في كل من سوريا ولبنان . وقام سولود بنشاط دبلوماسي ملحوظ ، وفي عهده انتقلت

تبعية الحزب الشيوعي من فرنسا الى تبعية الاتحاد السوفياتي . ويعتبر سولود من ادهى الرجال الدبلوماسيين السوفيات الذين عملوا في منطقة الشرق الاوسط . وقد لعب دوراً في بدء العهد الناصري قلب سياسة مصر والشرق الاوسط رأساً على عقب .

وبعد تحرر سوريا ولبنان من الانتداب ، ضعف نفوذ الحزب الشيوعي بدليل انه لم يفز احد من مرشحيه في انتخابات ١٩٤٧ ، وفي العام التالي ، عام انشاء دولة اسرائيل ، استقال الكثيرون من الحزب ، فلجأ الحزب الى الدعوة لانشاء « جبهة وطنية » او « اتحاد وطني » او « مؤتمر وطني » بغية التسلل الى الصفوف الوطنية لنسفها من الداخل واستغلال طاقاتها والسيطرة عليها . وكان ان عممت سياسة الشعارات التي لم يكن للشرق عهد بها من ذي قبل .

وكانت نظرة الشيوعيين الى الحركات الوطنية كونها حركات بورجوازية حتم عليهم محاربتها والقضاء عليها لأنها من مخلفات الرجعية. ومرت السنون، واستغل الشيوعيون كل تقهقر سجل في المعسكر الغربي. وراح الكثيرون من مختلف الطبقات ينظرون الى الاتحاد السوفياتي بمنظار الدولة العظمى التي سحقت جحافل النازية والتي ينتظرها غد افضل ربما مكنهم من تحقيق طموحهم .

وقد اطلقت سياسة الشعارات عبارات مختلفة كالامبريالية والاستعمارية والتقدمية والعدوانية تنتهي بـ « ية » تبنتها الطليعة العربية ومنها « الطليعية » في ما بعد . وفي كل مرة تستعمل هذه الطليعة (ممن انتمى اليها او ممن لم ينتم) هذه الالفاظ يقهقه الشيوعيون الذين فاقوا

كل تخصص في اختراع واطلاق مثل هذه الشعارات . وكثيراً مـا تستعمل هذه الالفاظ من اناس قوميين او وطنيين ينهجون منهجاً مناوئاً للشيوعية ، ذلك ان مختبر الالفاظ الشيوعية والشعارات يعنى في هذا الاختصاص منذ ما ينيف عن نصف قرن، يقيناً من القيمين على شؤونه ان للالفاظ والشعارات في السياسة تأثيراً من الصعب محوه او انتزاعه من افكار الناس .

المرحلة الرابعة

الذروة
في التغلغل الشيوعي

١

سرعان ما انتقل العالم من الحرب الدامية الى الحرب الباردة عند نهاية الحرب الكونية الثانية ، وعادت العلاقات بين الاتحاد السوفياتي والغربيين الى سابق عهدها ، لا بل ازدادت توتراً بسبب تقاسم النفوذ المقرر في مؤتمر يالتا ، ومنها بسبب الصين والقنبلة الذرية والخلافات الناشبة حول اذربيجان واليونان اللتين كانتا مسرحاً للصراع بين الشيوعية والوطنيين .

وبدأت الحرب الباردة تذر قرنها في الشرق ، اذ ان السوفيات اعتبروا الاستقلالات التي حققها بعض البلدان في آسيا وافريقيا ، كالهند ، وبورما ، واندونيسيا ، وسيلان ، وغيرها ليست سوى نوع من الحكم الذاتي ، ذلك انها ظلت خاضعة لنفوذ الدول الكبرى ، واستوت في صف الدول شبه الاستعمارية semi - colonial على حد تعبير خبراء السوفيات .

وعلقت السلطات السوفياتية الرسمية سنة ٤٩ — ١٩٥٠ على ان مثل هذه البلدان الضعيفة لا تستطيع ان تتبع مخططاً او منهجاً مستقلاً في السياسة الدولية لان مفاتيح المراكز الاقتصادية والعسكرية في تلك

الدول لا تزال بيد الغربيين .

كانت خمس سنوات كافية بعد الحرب لتشق القوى العالمية وتهدد العالم بشبح حرب اخرى . واصبح في عام ١٩٥٠ معسكران : الرأسمالية الديمقراطية بقيادة الولايات المتحدة الاميركية، والاشتراكية وزعيمها الاتحاد السوفياتي .

وكان ان حلت الولايات المتحدة مكان بريطانيا وفرنسا . لم تصبح الولايات المتحدة دولة من الصف الاول الا في اعقاب الحرب العالمية الثانية . فقد قدمت العتاد والرجال للحلفاء ولولاها لما ربحوا الحرب بالتأكيد . وكان من الطبيعي ان يحل النفوذ الاميركي مكان النفوذ البريطاني والفرنسي في شتى بقاع الارض . فانتقلت اميركا الى دولة من الدرجة الاولى ، لا بل ، اصبحت اقوى دولة في العالم . وضاعف نفوذها وقوتها امتلاكها القنبلة الذرية .

وفي سنة ١٩٥٠ ، لم يكن ثمة احتمال في قيام جبهة ثالثة ، لقد كانت معظم الدول الافريقية الاسيوية في طور المطالبة بالاستقلال والتحرر او في طور النهوض في مستهل عهودها الاستقلالية . ولما كان زعماء هذه البلدان المستقلة حديثاً لم ينهجوا النهج الاشتراكي ، والأهم ، لم يدخلوا في فلك الاتحاد السوفياتي ، فقد ظل السوفيات يعتبرونهم تابعين المعسكر المضاد للاشتراكية .

الا ان موقف السوفيات من البلدان المتحررة كان مشحوناً بالمتناقضات . لقد كانوا يرحبون بكفاح المصريين ضد بريطانيا (١٩٥١ — ١٩٥٢) ، لكنهم لم يبذلوا أي مجهود لمساعدتهم كأن الأمر

لا يعنيهم برغم أن شعاراتهم كانت تؤيد ، في كل مكان وفي كل مناسبة ، كفاح الشعوب ضد الاستعمار والامبريالية . وكان طبيعي ان يقف السوفيات مثل هذا الموقف اللامبالي من مصر بالنظر لأنه لم يكن ثمة حزب شيوعي في واجهة الكفاح .

وتجدر الملاحظة الى ان كتابات السوفيات في صدد آسيا خلال الاربعين عاماً الاخيرة كانت تتضمن انتقادات لاذعة موجهة ضد غاندي والكونغرس الهندي ونهرو والنحاس وحزب الوفد . اذ طالما اعتبروا هذه العناصر اداة ان لم تكن طيعة بأيدي الغرب ، انما على الاقل ، تدين بدين الغرب السياسي وتعتنق ثقافته .

والقول بان السوفيات لم يوجهوا اهتماماً كبيراً الى منطقة الشرق الاوسط خلال السنوات العشر التي تلت الحرب الكونية الثانية قول لا يسلم به الا الذي يجهل الامور السياسية ماضياً وحاضراً . اذ ان الحاضر السياسي ليس ولا يمكن ان يكون وليد المصادفة ، انما هو حصيلة سنوات من النشاط السياسي . اما القول بان التأثير والنفوذ الشيوعيين في المناطق المعنية في هذه الدراسة لم يكن كما هو عليه الآن لقول يعكس الحقيقة الى أبعد حد . ذلك ان النفوذ الغربي لم يكن قد تقلص بعد من هذه المناطق .

والقاعدة هي ان النفوذ السوفياتي يحل مكاناً تقلص منه النفوذ الغربي ، وهذا الصراع في مد وجزر مستمرين . ومن الاسباب التي ربما في نظر المراقبين السياسيين ، اعاقت مسير الشيوعية في المنطقة هو موقفها العدائي من الحركات الاسلامية الكبرى التي اشرنا اليها في مطلع هذه

الدراسة ، كالحركة الاسلامية pan - islamism ، والحركة التركية — الطورانية pan - turanianism والحركة الايرانية pan - Iranianism

وتجدر الاشارة الى ان هذه الحركات تطورت وتحوّلت اليوم الى الحلف التركي — الايراني — الباكستاني المعبّر عنه بمنظمة الحلف المركزي (السنتو) (Cento)

ولم يكن موقف السوفيات من القومية العربية اقل عداءاً يقيناً منهم بان الغرب — بريطانيا والولايات المتحدة — يحث البلدان العربية على اقامة وحدة تكون اداة بين يديه ، يسهل استخدامها في تحقيق مآربه الاقتصادية والسياسية ، لا سيما في تصفية قضية فلسطين ، اذ ان التفاهم مع وحدة لاسهل بكثير من التفاهم مع وحدات .

وقد تجلى موقف السوفيات العدائي من الحركة التركية في شن حملة شعواء على الحكومة التركية إثر سنة ١٩٤٦ ، لاسباب منها ان تركيا لم تدخل الحرب الى جانب الحلفاء لا سيما الاتحاد السوفياتي ، وعلى ما يبدو انه تم ذلك بناء على رغبة الحلفاء ، وبالتالي ان السوفيات اعتبروا تركيا قاعدة عسكرية للغرب جاثمة على تخوم الاتحاد السوفياتي .

ونعت السوفيات تركيا بانها « مستعمرة لوول ستريت » وأرادوا بذلك ان ينسبوا للاتراك انهم غدوا تابعين الولايات المتحدة ، وانهم بالتالي قد فقدوا استقلالهم .

وتمادى السوفيات في اذاعاتهم ووكالات الانباء السوفياتية ووكالة تاس في التعرض الى تركيا وانتقاد الاوضاع فيها . ونسبوا افلاسها على الصعيد الاقتصادي بسبب اتباعها « مشروع مرشال » ، وهو المشروع

الذي اعلنت عنه الولايات المتحدة الاميركية بعد الحرب لمساعدة الدول النامية والمتخلفة .

غير ان الواقع ان تركيا اصابت نوعاً من التقدم في مختلف المرافق والميادين في خلال الفترة الواقعة بين ١٩٤٩ و ١٩٥٣ لا يمكن تجاهله .

كما وان التحالف بين كل من تركيا ويوغسلافيا واليونان وباكستان وايران لتدعيم الجبهة الشرقية والتي اوعزبه الخبراء العسكريون في الحلف الاطلسي كان يغضب السوفيات .

لكن الحملة التي شنها الاتحاد السوفياتي على تركيا كان لها هدف مزدوج : التعبير عن الاستياء ، وايجاد نوع من التقارب بعد التباعد . غير ان حساب الحقل لم ينطبق على مدرور البيدر . فقد اثارت الحملة مخاوف الاتراك ، مما دفعهم الى التقرب اكثر فاكثر من الغرب ، وتوطيد اواصر أوثق من الصداقة . وهكذا حصل جفاء في العلاقات السوفياتية التركية استمر عدة سنوات .

كذلك ، كانت الحملة مداورة ، ولم تكن تلك التي كانت موجهة ضد ايران اخف وطأة ، انما فاقت حدتها كل تصور ، فقد نعتوا رئيس الوزراء الايراني حكيمي كونه عدواً لدوداً للاتحاد السوفياتي ، كما وصفوا كافام انه عميل اميركي يأتمر بأمر حكام وشنطن ، وحتى مصدق لم ينج من اتهاماتهم ، فقد نسبوا له انه عميل اميركي وآلة طيعة بين ايديهم . ولم يلبثوا ان غيّروا رأيهم في مصدق فيما بعد عندما قام باحداث الشغب معللاً نفسه بالاستيلاء على الحكم .

ويتبين من تعليقات لاحقة قام بها السوفيات ان ثمة وجود تشابه

بين الاعمال التي حاول ان يقوم بها مصدق عام ١٩٥١ ، والتي قام بها عبد الناصر ١٩٥٥ — ١٩٥٧ . غير ان هذا نجح في تنفيذ مراميه وذاك اخفق في محاولاته .

واثر تواري مصدق عن الحلبة السياسية ، لم يعد بين السوفيات وحزب تودة علاقة وثيقة ، لا بل ، لم يعد لهم ثقة به ، على حد قولهم ، بصرف النظر عن ان الشعب الايراني والحكومة شتت شملهم وزجت كبارهم في السجون . (عفا الشاه فيما بعد عن قادتهم)

واذا ما رجعنا قليلاً الى الوراء ، وانتقلنا من منطقة الشرق الادنى او بالاحرى الى الشرق في فلسطين ، نرى ان موقف السوفيات كان متقلباً في هذا الصدد . فعندما اعلنت الحكومة البريطانية يوم ١٤ ايار ١٩٤٨ نهاية انتدابها على فلسطين ، واعلن اليهود قيام دولة اسرائيل ، وشنت الجيوش العربية هجومها على القوات اليهودية ، غضب السوفيات اذ انهم اعتبروا هجوم الدول العربية على اليهود في فلسطين عملاً عدوانياً ، فطلبوا رسمياً من هذه الدول ان تكف عن الهجوم وتتنازل عن مطاليبها .

ويبدو ان هذا الموقف المعادي من العرب كان بمثابة انتقام من زعمائهم الذين كانوا يسيرون في ركاب الغرب ، وبالتالي ، كان كرد فعل للعرب لانهم اثر عام ١٩٣٧ ، توددوا الى النازية ، وقد عبّر عن هذا التودد الحاج امين الحسيني مفتي فلسطين في اتصاله مع المراجع الالمانية العليا . (راجع سامي الصلح احتكم الى التاريخ)

وحين كانت بريطانيا والولايات المتحدة مصممتين على مساعدة

اسرائيل ولكن على اساس الاعتراف بها اعترافاً واقعياً فقط de facto
ولجأت بريطانيا الى السابوتاج في ردهات هيئة الامم في هذا الصدد ،
اصر الاتحاد السوفياتي على ضرورة الاعتراف بدولة اسرائيل اعترافاً
شرعياً de jure . وفي الواقع ، ان سجلات هيئة الامم لتشهد بان
اعتراف الولايات المتحدة باسرائيل عام ١٩٤٨ كان اعترافاً واقعياً في
حين سجل الاتحاد السوفياتي في التوقيت نفسه اعترافاً شرعياً باسرائيل .

لكن هذه السياسة السوفياتية لم تدم طويلاً ، وسرعان ما اماط
السوفيات اللثام عن تقلص نفوذ بريطانيا وتذمر الطليعة العربية في كل
مكان من الحكومات الاستقلالية التي وصموها بالحكومات الرجعية .

وبلغ استياء السوفيات اوجه من اليهود الذين راحوا يغادرون
الاتحاد السوفياتي الى اسرائيل ويبدون تعلقهم الشديد باسرائيل . كما
أحسّ السوفيات على أن الانقلابات العسكرية التي حصلت في سوريا
وفي مصر ، وان كانت مدفوعة من الغرب ، فهي موضوع قابل للحوار
وفيها بريق من الامل .

لم يعارض السوفيات اولاً انشاء الجامعة العربية ، تلك التي لفت
اليها سامي الصلح الجنرال سبيرس ، وسبيرس بدوره لفت ايدن الذي
طلب رسمياً من نوري السعيد اعداد مشروع لها . فأدخل السعيد فيها
مشروع « الهلال الخصيب » لكنها تطورت فيما بعد لتشمل سبع دول
عربية مستقلة وشبه مستقلة حتى تحققت عام ١٩٤٥ .

لم يعارض السوفيات انشاءها ، ولكن سرعان ما حملوا عليها
واتهموها كونها من صنع الاستعمار البريطاني انشئت خصيصاً لمحاربة

القوى التحررية في البلدان العربية ومناصرة الرجعية . وقد يكون هذا
هو الهدف من انشائها ، غير ان الدول العربية استدركت مرامي بريطانيا
واستطاعت ان تنقذ الجامعة العربية من براثنها . واذا بدت انها تفتقر الى
الفعالية ، فان الموضوع المطروح الآن ليس في صدد فعاليتها ام عدمه .

ولم تلبث أن تحوّلت الجامعة العربية من التبعية البريطانية الى التبعية
الاميركية سنة ١٩٥٠ ، فلم يتورع السوفيات عن اتهامها بالرضوخ الى
النفوذ الاميركي بدلاً من البريطاني .

وها هي سنة ١٩٥٢ تطل ومعها فريق من الضباط المصريين بقيادة
محمد نجيب وجمال عبد الناصر . استقبل السوفيات الثورة كما استقبلوا
الانقلابات السابقة في سوريا بكثير من التحفظ ، وربما بشيء من
اللامبالاة ، يقيناً منهم ان صراعاً انكلو — اميركياً كان الحافز في احداثها .
ورأى الروس من خلال هذا الصراع بين الغربيين انفسهم ان الفرصة
سانحة لاعادة النظر في موقفهم من الشرق العربي واعادة تقييم العناصر
التي تتحرك وتحرك الجماهير في هذه المنطقة .

وكان على السوفيات ان ينقلوا قاعدتهم من سوريا التي طالما
اعتبروها قلب العالم العربي الى مصر زعيمته . فاخذوا يعدون العدة
لتحقيق مآربهم . كانت سوريا في الشرق بين الدول العربية البلد الاكثر
اقتراباً من السوفيات ، على الرغم من الجفاء المستحكم بينهم وبين
الدكتاتورية المتعاقبة ، بدءاً من حسني الزعيم ، رائد الانقلابيين ١٩٤٩ ،
ناهيكم عن ان عهد القوتلي في سوريا (١٩٤٧) امعن في اضطهاد
الشيوعيين ومكافحتهم وزجهم في السجون .

وكان حسني الزعيم ، على حد اتهام السوفيات ، عميلاً للاميركان والفرنسيين ، كما نسب اليه الميل في ترشيح النظام الفاشي في البلاد . ونددت صحف موسكو بالعقيد سامي الحناوي الذي خلع حسني الزعيم وقضى عليه ووصفته بانه عميل بريطاني . واما الشيشكلي ، فقد لزموا الحياد ، بادىء ذي بدء ، وتحفظوا حياله ، يقيناً منهم بمسايرتـه الشيوعية . لكنه خاب املهم وحملوا عليه عندما ترك الحكم سنة ١٩٥٤ .

وبفضل المساندة المصرية ، عادت الحياة الديمقراطية الى سوريا ، وانتخب شكري القوتلي رئيساً للجمهورية . لكن السوفيات كان يهابون فارس الخوري ، وينظرون الى مواقفه السياسية بمنظار القلق ، ذلك انهم خبروا مواقف فارس الخوري في هيئة الامم دفاعاً عن حق تقرير مصير اذربيجان وفلسطين وغيرهما . في الواقع ، كان فارس الخوري من المع رجالات الدولة التي عرفتها سوريا ولبنان وسائر البلدان العربية.

ولم يكن غريباً ان يتابع السوفيات مخططهم في مساندة الحزب الشيوعي في سوريا حتى غدا هذا الحزب قوياً ، وباتيشكل خطراً على الحكام البورجوازيين بعد ان دخل خالد بكداش الزعيم الشيوعي الندوة النيابية لاول مرة .

٣

وهكذا بدأ السوفيات يضاعفون جهودهم في المنطقة ، ووجهوا

اهتمامهم ، بنوع خاص ، الى كل من مصر وسوريا . ففي مصر ، انتهز السوفيات فرصة المفاوضات بين مصر والغرب لتمويل السد العالي ، فعرضوا تمويل السد على عبد الناصر ، كما عرضوا عليه صفقة الاسلحة لأن الغرب ابى ان يسلم الاسلحة الا بشروط ، وكانت الشروط قاسية على المصريين وهي الا يستعملوها ضد اسرائيل . فدنا سولود المشار اليه آنفاً من جمال عبد الناصر في احدى الحفلات وعرض عليه الاسلحة . وهكذا ، تمت صفقة الاسلحة مع تشكوسلوفاكيا الدائرة في فلك الاتحاد السوفياتي (٥٤ — ١٩٥٥) .

وهكذا بدأ نفوذ السوفيات يتصاعد في المنطقة ، فاهملوا تركيا وايران وسائر المناطق ليصبوا كل اهتمامهم على مصر وسوريا . وفي عهد القوتلي (١٩٥٦) تمت اول صفقة اسلحة سوفياتية ايضاً مع سوريا .

اما العراق والاردن والسعودية ، التي كانت في ظل النظام السياسي المحافظ ، فكانت بالنسبة الى السوفيات تأتي في الدرجة الثانية علماً بان هذه البلدان كانت ، بحكم طبيعة نظامها ، لا تزال مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالغرب وكان في بعضها قواعد عسكرية .

ومع ذلك ، لعب السوفيات على اوتار متعددة ، وكان موقفهم من كل هذه البلدان يختلف الواحد عن الآخر ، فكانوا يعتبرون العراق سجناً كبيراً والحكم فيها حكماً اقطاعياً (لغاية ثورة ١٤ تموز ٥٨) . اما موقفهم من الملك عبد الله ، فكان موقفاً معادياً . غير انهم لم يتطرقوا الى مهاجمة طلال وحسين ، برغم اعلان حسين سياسة مناوئة لهم . ذلك ان سياسة الملك حسين لم تكن في الداخل تعارض جبهة التحرر

الوطني ، وتجدر الاشارة الى انه قام بطرد غلوب باشا من بلاده . لكن عندما جرت محاولة النابلسي للاستيلاء على الحكم واخفقت (١٩٥٧) بفضل شجاعة الملك حسين ، تبدلت سياسة السوفيات بالنسبة الى الملك واخذت تهاجمه .

اما فيما يتعلق بالسعودية ، فان علاقات السوفيات الدبلوماسية تعود الى عام ١٩٢٦ ، اذ كان السوفيات يعقدون آمالاً على ان يظل ابن سعود في اتباع سياسة معادية للبريطانيين كما بدأ في عهده ، لان البريطانيين كانوا حلفاء وحماة عدوه شريف مكة الشريف حسين . ولكن سرعان ما تبدلت الاحوال وتغيّرت هذه السياسة حوالي ١٩٤٠. وامسى الملك عبد العزيز صديقاً حميماً للغربيين . وتكرّست هذه الصداقة عندما التقى المستر ونستون تشرشل والرئيس روزفلت بالملك عبد العزيز على ظهر الباخرة « كونسي » سنة ١٩٤٥ .

وعلى الاثر تبخرت الآمال التي وضعها السوفيات في الملك عبد العزيز كموحّد للاسلام وجامع شمل العرب .

وكان من الطبيعي ان تتطور العلاقات السعودية الاميركية اثر اكتشاف النفط وتأسيس شركات الزيت والتنقيب عنه في الصحراء السعودية . وعلى الرغم من كل ذلك ، لم يحمل السوفيات مباشرة على الملك عبد العزيز مثل ما حملوا على عبد الله ونوري السعيد . وغض السوفيات النظر عن كل ما كان يحصل في السعودية لا سيما بين الحاشية والاسرة المالكة على اعتبار ان هذه الامور هي، في نظرهم ، كالطعم الذي يحفز للثورة .

وفسّر البعض ان هذا السكوت عائد الى اعتبار الملك عبد العزيز او خلفه سعود حامي الاراضي المقدسة وامام المسلمين ، وان كل حملة عليه انما يخشون ان تفسّر كونها حملة على الاسلام والمسلمين . لكن هذا التفسير خاطىء جملة وتفصيلاً .

٤

وبعد موت ستالين ، طرأ على السياسة السوفياتية تغييرات جذرية ، وتنفّس السوفيات انفسهم الصعداء ، وكان من شأن هذه التغييرات ان تبدّلت سياستهم بالنسبة الى الشرق الاوسط ، وأصبح الخبراء ينفذون ما يخطط لهم الدبلوماسيون السوفيات .

ولما رأى الروس ان الشيوعية لم تتمكن من دك حصون تركيا وايران ، رأوا انه من الانسب الافادة من الموجة العارمة التي سببها تأميم قناة السويس ، اثر صفقة الاسلحة وزيارة شبيلوف لناصر عام ١٩٥٥ ، في جعل العالم العربي العمود الفقري لانطلاق نشاطهم في الشرق الاوسط ، وتوثيق المزيد من الصداقة مع العرب باستغلال شعبية جمال عبد الناصر التي فاقت كل تصور في المنطقة .

كانت سنة ١٩٥٦ نقطة تحوّل في السياسة الشرقية والدولية . ارادت اميركا ان تحل مكان بريطانيا لسد الفراغ في المنطقة ، فشجعت جمال عبد الناصر على تأميم القناة . وعندما وقع العدوان الثلاثي ، وقفت الولايات المتحدة الى جانبه ووقفت معه ، كما حوّلت حصتها من

عائدات القناة كجزء من المساعدات الاميركية للحكومة المصرية .

كان بوسع الولايات المتحدة ان تستغل هذا الموقف الى ابعد حد ، غير ان التكتيك السوفياتي في الدعاوة والاعلام قطف كالعادة ثمار مجهود الولايات المتحدة وموقفها من مصر والبلدان العربية ، وذلك بتوجيه انذار من بولغانين الى كل من بريطانيا وفرنسا ، ساعات بعد اصدار قرار وقف اطلاق النار من مجلس الامن الدولي ، وبعد التأكد من موقف اميركا الرادع لكل من بريطانيا وفرنسا واسرائيل .

وهكذا ، راح الاتحاد السوفياتي يستغل بواسطة الاحزاب الشيوعية في المنطقة وسائر وسائل الاعلام الانذار الموجه الى كل من الحكومة الفرنسية والحكومة البريطانية بقصفهما بالصواريخ الموجهة .

والجدير بالذكر انه بعد الوحدة بين مصر وسوريا التي كانت ضربة مسددة الى سياسة الاتحاد السوفياتي في المنطقة ، تأزمت الحالة الدبلوماسية بين الرئيس المصري والسوفيات ، فاضطر عبد الناصر في خطاب له عام ١٩٥٩ الى ان يعلن « ان الاتحاد السوفياتي لم يساعدنا في معركة السويس ». وقال عبد الناصر ايضاً : « .. لن يجد الشيوعيون من يستجيب لهم في العالم العربي الا العملاء ، لان الشيوعيين عملاء ، وهم لا يؤمنون بالحرية في بلدهم ولا يؤمنون بحرية وطنهم ولكنهم يعملون للاجنبي .

هذه هي الشيوعية ، ولهذا حاربناها ونحن لم نحارب اليسارية باي حال من الاحوال لان اليسارية قد تعبّر عن المبادىء الوطنية ، ولكننا حاربنا الشيوعية لانها تأخذ الوحي من ارضها ، بل تأخذ الوحي من

خارج بلادها . »

كان الاتحاد السوفياتي يأمل في ان يسيطر عفيف البزري على الحكم في سوريا ، غير ان لجوء القوتلي وكبار الضباط واركان حزب البعث الى مصر وحث الرئيس ناصر على انشاء اتحاد بين مصر وسوريا قضى على آمال الشيوعيين ومخطط موسكو .

ومهما يكن من امر ، فان التغلغل السوفياتي في المنطقة بلغ اوجه عام ١٩٦٧ . وان المسؤولية في ذلك لا تتناول مصر وسوريا او غيرهما من البلدان العربية . ان المسؤولية في ذلك تتناول الولايات المتحدة وبريطانيا في بادىء الامر . فاذا راجعنا الاخبار في وزارة الخارجية الاميركية وفي سائر العواصم المعنية ، نرى ان الغربيين احكموا المزيد من التضييقات ، وأثاروا العراقيل في وجه العلاقات الودية التي كان العرب يؤثرونها ولكن عبثاً ، لقد اعمت المصالح الغربية انظار المسؤولين اضف اليها وجود اسرائيل في المنطقة وسيطرتها العسكرية .

هذه الاعتبارات ، ان دلت على شيء ، فانما تدلّ على عبر لم تكن موضع عظة ، فكان ان تسللت الشيوعية الى الشرق الاوسط وحققت حلم بطرس الاكبر ، الا وهو السيطرة على شرقي البحر المتوسط .

والآن ، هل من صالح السوفيات انهاء كل شيء وعودة المياه الى مجاريها في المنطقة ؟ ربما كان ذلك في مصلحتهم هذه المرة ، ربما لأن شبح الصين يطل من الشرق البعيد ، واولى ان يهتموا به لئلا يبتلعهم .

لقد رافق هذا التسلل البطيء عبر خمسين سنة تسلل ثقافي عقائدي اكثر منه بشري. وامتزجت الثقافة بالسياسة . وكانت تعاليم ماركس

ولينين تتسرّب الى الدور والمعاهد والجامعات . وفي منطقة حساسة كالشرق الاوسط ، راحت السياسة السوفياتية بواسطة عملائها وانصارها تروج ان المبادىء الاشتراكية ليست بالشيء الجديد ، انما هي انعكاس للمبادىء الانسانية السامية التي بشّر بها المسيح (عيسى) عليه السلام في الانجيل ، ومحمد (ص) في القرآن. وانطلت هذه الاجتهادات على بعض العقول ، لكنها لم تنطل على كلها ، وسرعان ما ادركت النخبة حقيقة هذه التعاليم عندما ادخلت بعض موادها في الجامعات ، واما السواد الاعظم من الشعب ، فقد عانى تجربة مرة قاسية على يد الداعين الى الاشتراكية الماركسية — اللنينية ، وهي لم تتربع على سدتها بعد في المنطقة كما يحلو لها ، فكيف اذا تربعت .

٥

ويبدو ان صوفية الشرق الديني عبر كل العصور ، قبل وجود اليهودية والمسيحية والاسلام ، لا تتيح في المجال لشعوبه لهضم هذه التعاليم ، فهي الباب الموصد ابداً امام الشيوعية ، لذا لجأ السوفيات الى عوامل التسلل الاكثر فعالية وحساسية . الا وهي العوامل الاقتصادية والعسكرية (الاسلحة) . ومع كل ما حصل للعرب ، وبرغم الهزيمة التي منوا بها في حرب ٥ حزيران ١٩٦٧ ، فانهم تحفظوا ولم يستسلموا الى الشيوعية ، لا ولم يفتحوا لها ابوابها على مصراعيها . فالتسلل مستمر ولكن بصورة اكثر علانية ، اذ بدلاً من ان يدخلوا من الكوة ، بدأوا يدخلون من النوافذ ومن الابواب . لكن هذه الابواب ليست مشرعة ،

ويبدو ان للشرق حرمة يتعثر في خرقها حتى المسلمون غير العرب ، ولنا في ايران وتركيا اكبر برهان ، وكيف متى كان الداخل لا يمت اليهم لا بصلة العرق ولا بصلة الدين ولا بصلة الثقافة .

اما الجميل ، فانهم لا ينسون اصدقاءهم اللهم اذا كانت الصداقة بالفعل هي رائد التقارب السوفياتي — العربي ، لكن المطلع ، يعرف ان لا صداقات بين الدول ، انما مصلحة دائمة . والاتحاد السوفياتي قد تمكّن ، بفضل هذا التسلل البطيء ، من فرض سيطرته وتعريف اسلحته وكثير من المواد الاولية في هذه المنطقة التي تعتبر مجالاً اقتصادياً وبشرياً واستراتيجياً حيوياً في العالم .

وان العوامل التي ساعدت الروس في التغلغل هي اولاً الكابوس الغربي والفقر المدقع التي تتخبط به شعوبها ، وهنا ميدان الشيوعية الاصيل ، والفقر ليس بسبب الافتقار الى الموارد ، انما بسبب الافتقار الى العلم ، بسبب افتقار الكبار الى محبة الصغار ، بمعنى اوضح ، بسبب تكافؤ الفرص امام المواطنين في كل مكان من هذا الشرق ، بسبب سيطرة الاقطاعية الزراعية والسياسية والعائلية والاقتصادية على سائر القطاعات ، بسبب الانانية الفردية المتفشية في كل عضو من اعضاء هذه المجتمعات والتي بسببها حصلت الانقلابات ، وتبوأ الاحكام ضباط قليلو الخبرة في السياسة . وكانت هذه الظاهرة ردة فعل على عهد الاقطاعية والرجعية الذي تجلى في سيطرة بعض العائلات على الملايين ولا تزال .

ان الديمقراطية والعدالة وتكافؤ الفرص امام المواطنين والاقلاع عن القوانين التي تكرّس الاقطاعية على اختلاف انواعها وتحجر انظمة

الحكم والعلم الصحيح المتعدد الجهات والجبهات اللهم المنفتح ، والاخذ بشرعة حقوق الانسان وواجباته ، نصاً وروحاً ، وتبوأ الحكم عن طريق الانتخاب الشعبي الحر الصحيح لا عن طريق الدبابة او التروست الاحتكاري المالي، اوالاقطاع العائلي، هي العوامل الكفيلة بان تحول دون تسلل ليس الشيوعية فقط ، بل تيارات اخطر من الشيوعية وتيارات خارجية بدت تعصف على ابوابنا لتدك كياننا وتراثنا اين منها عواصف المغول والتتر وكوارثهم .

المرحلة الخامسة

الحرب النفسية

السلاح الاقوى

١

لقد المعنا في الفصول الماضية الى كيفية تسلل الشيوعية الى الشرق الاوسط مع ذكر بعض اسماء الخبراء والعملاء الذين تعاونوا معها ، وبعض الظروف والملابسات التي احاطت بهذا التسلل، ولكن فاتنا ان نلفت القارىء الى الطريقة الاساسية التي استطاعت بموجبها الشيوعية ان تستغل هذا الوجود وتضخمه لمصلحتها . وقد يكون للدولة الكبرى اهداف بعيدة المدى ، لكن الدول لا تستطيع ان تخطط الى ابعد من امد معين، وهي تخطط في الاساس للوقت الحاضر او للغد القريب .

ان التخطيط لخمسين او لماية سنة مستقبلية لا يمكن ان تقوم بـه الدولة عادة مهما عظم شأنها ، وان ذلك لا يدخل إذا ما حصل ، الا في باب الافتراض . ولا يلبث ان تمر سنوات حتى يكون التخطيط في حاجة ملحة الى تعديل جذري من جديد .

غير ان الدولة الحديثة لا يمكن ان تقوم على غير التخطيط المستقبلي لعشر او عشرين او ثلاثين سنة . وان كل دولـة لا تتبنى التخطيط المستقبلي ، ولا تأخذ بعين الاعتبار عملياً ، ابعاد المسائل الراهنـة ، لن يكون لها دور في الميدان العالمي ، لأن الادوار التي تلعبها الدول ،

فضلاً عن انها تبدو عفوية في الظاهر ، لكنها حصيلة جهد جامع لتبنيها بعض النظريات والافكار البناءة التي تقوم على التفاعل العملي في المرافق الاقتصادية . اذ ان الثقافة قلما شكلت قوة امة من الامم ، او كانت سبباً في قوتها بقدر ما كانت القوة الاقتصادية ، بحيث اذا ما عرجنا على القوة العسكرية ، فلا نجد قوة عسكرية بلا قوة اقتصادية .

ومن الطبيعي ان يكون حقل الاقتصاد ، في الاساس ، الانسان في تفاعل مستمر مع القوى والموارد الطبيعية . وعندما تصبح المجتمعات في شبه اكتفاء ذاتي ، فانها انما تسعى الى الانطلاق خارج اطارهـا والدخول في اطر غيرها ، سواء عن طريق التبادل او الغزو ، او التسلل البطيء ، في مقدمة اثبات الوجود بالبينة الشخصية .

وبديهي ان يكون في ما وراء هذه العمليات ذكاء حاد واغراء من قبل الدول او الدبلوماسيين او الاشخاص الذين تنتدبهم هذه الدولة لغزو تلك ، او للحلول مكان دولة اخرى تسيطر على المجتمع ، او على السوق التجارية . وثبت من التاريخ ان الكيان الاقتصادي لعب دوراً اساسياً في هذا النوع من العلاقات ، بمعنى انه كان له تأثير على سائر الكيانات ، وكانت في النتيجة الغلبة له ، اذ عبثاً حاول شاعر أو فيلسوف ، او لاهوتي ، التأثير على مجتمع ما عندما يحضر بائع المجوهرات والحلى او بائع الأسلحة والالبسة او مخترع السفن والعجلات او البناء او ما شاكل ذلك. فان نار العبقرية تخبو مهما كانت مشعة عندما ينزل البحث العملي الى الميدان .

هذا لا يعني ان نار الثقافة لا جدوى منها ، انما على العكس ، فهي

التي تستهل الفعل الذي تكمله الآلة الاقتصادية او العامل الاقتصادي . وعندما تكون العروض متكافئة او شبه متكافئة ، فـان ثمة عاملاً للاستغلال يبرز الى حيز الوجود ليلعب دوراً اقل ما يقال فيه انه الدور الحاسم ، او على الاقل الحاسم في ظروف معينة ولازمنة محددة .

فالثقافة لها تأثيرها على الجيل الصاعد الذي يتحرك بسرعة ، ولا يستطيع احد ان يحرك مجتمع بغير هذه الطبقة من الشباب ، اذ ما ان يدرك الشاب سن الرجولة حتى يفعل فيه الاختمار وتضفي على نفسيته سمة اللامبالاة . ان الشيوعية والنازية والفاشية ، في العصر الحديث ، لم تقم سوى على فتيان لم يتجاوزوا العشرين من العمر . واذا ما نظرنا الى الاحزاب في العالم كافة ، لا سيما تلك التي تطغى عليها الصفة الديناميكية المضادة لطبيعة الحياة ، فاننا نرى ان السواد الاعظم من اعضائها شباب لا يتجاوز عمرهم الخامسة والعشرين .

وحتى لا نعود القهقرى الى التاريخ ، ونكتفي بالبراهين الحسية المحسوسة في زمننا الحاضر ، نرى ان الطلاب في العالم يشكلون اليوم الطبقة الفاعلة الديناميكية المتحركة ، لا بل الاكثر تحركاً . وكانت لفترة ما الطبقة العمالية والبروليتاريا تحتل الصدارة ، كانت اثناؤها الطبقة الطلابية اقل شأناً او عدداً مما هي عليه اليوم ، ولكنها سرعان ما طغت الموجة الطلابية على سائر الحوكات ، وتغللت اليها العقائديات المختلفة، وشرعت استغلالها بأفكار حديثة وقديمة ، وبمؤثرات طالما دفعت بالهيئات الطلابية الى التمرد والمناقشة والاضراب والتظاهر والثورة .

وفي مخطط استغلال النفسيات الناشئة من ضمن الحرب النفسية التي

تكمن وراء الحرب الباردة في العالم اليوم ، نجد سلاحاً تنظيمياً لاستغلال نفسية الفئات المجتمعية كافة . فثمة حرب متعددة الجبهات ، تبدأ من اعلى الى اسفل . وقد برع الاتحاد السوفياتي في استخدام هذه الاساليب على اكمل وجه لا سيما في خلال العشرين سنة الماضية ، اي اثر تواري ستالين والستالينية عن المسرح السياسي .

لقد كان ستالين والستالينية تعبيراً موحداً عن البطش والقساوة والتصفية البشرية بالنسبة الى السوفيات انفسهم في مقدمة سائر الشعوب أما في عهد ما بعد الستالينية (**poststalinien**) فقد اتسمت السياسة السوفياتية بمرونة ودهاء وطول اناة قلّ ان مارستها دولة ، وقلّ ان شهد التاريخ نظيرها ، لا سيما في الشرق الاوسط .

صحيح ان الغربيين اخطأوا وتفاقمت اخطاؤهم ، ولم يرتدعوا واستمروا في غيهم الى ان بلغوا الهوة او كادوا يبلغونها ، غير ان ذلك لا ينفي الدهاء السوفياتي في الابداع في استغلال المشاكل والمنازعات التي نشبت بين الغربيين وحكومات الشرق العربي .

لقد أحسن السوفيات الاستغلال والانتفاع من نتائج الأعمال ، اذ كثيراً ما رأينا مستغِلاً استغل ليخدم سواه . اما السوفيات ، فقد احكموا الادوار وافادوا منها برغم الصدمة الاساسية التي لاقوها ويلاقونها في ازالة سوء التفاهم بينهم وبين الشعوب العربية .

ان مشكلة التعاون مع العرب عويصة ، اذا كان مخاطبهم غربياً قالوا فيه انه امبريالي واستعماري، وهذه من العبارات المصنوعة في مختبر الخلايا الشيوعية ، واذا كان مخاطبهم شرقياً سوفياتياً ، قالوا فيه انه ملحد

لاديني ، وربما هم على حق فيما يذهبون اليه . فالعرب بدأوا يشعرون بأن الغرب مع كل ما عانوا منه كان أخف وطأة عليهم من الشرق الشيوعي .

واذا كان الغرب قد اخطأ ، والشرق عرف كيف يستغل هذا الخطأ ويستفيد منه ، فهل العرب ملزمون اذا مالوا عن ذاك ان يميلوا الى هذا بسبب دهاء هذا وغباوة ذاك؟ ان الخاطىء يتحمل نتيجة خطأه وحده ، كذلك المستغل (بكسر الغاء) يفيد من استغلاله وحده . وهنا لا بد من ضحية ، فهل كتب على الشرق العربي ان يكون الضحية لتتم اللعبة او المأساة ؟

لقد تعددت جبهات الحرب النفسية ، وخبرناها في خلال الخمسين سنة الاخيرة ، اكان على الصعيد الخارجي في الصراع مع الغرب ام على الصعيد الداخلي .

٢

واذا كنا نبغي اطلاع القارىء على مراحل الحرب الباردة كافة ، لننتقل فيما بعد الى الصراع على الشرق الاوسط ، فان في ذلك تنويراً وتوضيحاً للحرب النفسية التي تقوم بها الشيوعية السوفياتية .

لقد بدأت الحرب الباردة (١٩٤٥) بضم الاتحاد السوفياتي الى اراضيه جزءاً من شرق تشيكوسلوفاكيا ، وشرق بروسيا ، واستخدم الجيش الاحمر في تحويل البانيا ، وبلغاريا ، والمانيا الشرقية ، والمجر ، ورومانيا وبولونيا الى بلاد شيوعية . ثم اخضعت منغوليا الخارجية

وكوريا الشمالية للسيطرة السوفياتية . وفي هذه الاثناء اصبحت يوغوسلافيا دولة شيوعية تحت حكم تيتو ، ثم حاولت القوات الشيوعية غزو اليونان بالحرب الاهلية . وعلى الاثر طلب الرئيس ترومان من الكونغرس تقديم مساعدات لليونان وتركيا ، واعلن ان الولايات المتحدة ستبدأ منذ ذلك الحين في تأييد الأمم الحرة التي تقاوم محاولات اخضاعها بواسطة الاقليات المسلحة ، او بالضغط الخارجي .

واعلن جورج مارشال وزير الخارجية (١٩٤٧) ان الولايات المتحدة ستساعد الامم الاوروبية التي دمرتها الحرب ، ورفض الاتحاد السوفياتي مساعدة (مشروع مارشال) لنفسه وللدول المشايعة له . واستولى الشيوعيون على السلطة في تشيكوسلوفاكيا عن طريق ثورة داخلية وتهديد الاتحاد السوفياتي بالداخل .

وفي هذه الفترة (١٩٤٨) ، حاول الشيوعيون الاستيلاء على السلطة في الملايو ، ولكن البريطانيين قاوموها بالسلاح . وفي حين تم اخضاع قوات الحرب الشيوعية في اليونان ، وقع اول حدث زعزع الشيوعية الدولية عندما انفصلت يوغسلافيا الشيوعية عن السيطرة السوفياتية .

انتقاماً لهذه الخيبة ، حاصر السوفيات برلين ، وظلت برلين الغربية عاماً بأكمله تُمون بنجاح من الجو . واعلن الرئيس ترومان في النقطة الرابعة من خطابه الافتتاحي عن برنامج جريء جديد لمساعدة الاقطار المتخلفة في العالم .

وفي سنة ١٩٤٩ ، اكمل الشيوعيون الصينيون غزو اراضي الصين

واصبح ستماية مليون نسمة خاضعين للسيطرة الشيوعية . ولدرء الخطر الشرقي المتفاقم ، انشئت منظمة شمال الاطلسي ، وتعهدت اكثر من عشر دول على جانبي الاطلسي بمساعدة كل منها الاخرى ضد اي عدوان شيوعي .

وفي هذه السنة ، فجر الاتحاد السوفياتي قنبلة ذرية بعد اربع سنوات من نجاح الانفجار الذري الاميركي الاول .

وفي سنة ١٩٥٠ ، هاجمت كوريا الشمالية بمساعدة الصين الحمراء كوريا الجنوبية ، وانبرت الامم المتحدة لمساعدة كوريا الجنوبية ، وقدمت الولايات المتحدة اكثر القوات والاسلحة . ثم غزت الصين الشيوعية التيبت بالقوة المسلحة .

وفي سنة ١٩٥٢ ، استسلم الشيوعيون في الفيليبين . وفي السنة التالية تمرد اهل المانيا الشرقية على السيطرة السوفياتية ، ولكن الدبابات والمدافع السوفياتية قضت على الثورة . وما لبثت ان انتهت الحرب في كوريا ، واحتفظت كوريا الجنوبية باستقلالها وسلامة اراضيها .

وفي سنة ١٩٥٤ ، نجحت قوات الشيوعية الفيتنامية بمساعدة الصين الحمراء في السيطرة على شمال فيتنام . ثم فجّر الاتحاد السوفياتي أول قنبلة هيدروجينية له بعد ستة اشهر من تفجير الولايات المتحدة لها .

وفي سنة ١٩٥٦ ، قامت ثورة في بولونيا ترتب عليها انشاء حكومة جديدة برئاسة فلاديسلاف جومولكا وهو « شيوعي قومي » . كما قام المجريون بثورة ضد السيطرة السوفياتية وتمتعت المجر بحريتها بضعة ايام ، ولكن القوات وامدادات الدبابات السوفياتية ما لبثت ان قضت

على الثورة بوحشية .

وفي سنة ١٩٥٧ ، عرض « مبدأ ايزنهاور » المساعدة الاقتصادية والعسكرية على اية امة مهددة بالشيوعية في الشرق الاوسط ، وفي هذه السنة ، نجح الاتحاد السوفياتي في اطلاق القمر الصناعي « سبوتنيك ١ » . ولم تنجح الولايات المتحدة في اطلاق قمرها الصناعي « اكسباور ١ » إلا سنة ١٩٥٨ ، وهكذا استمر سباق الفضاء .

وفي سنة ١٩٥٩ ، انتهت الحرب الاهلية في كوبا بانتصار فيدل كاسترو الذي اصبح مصدر التسلل الشيوعي الى اميركا اللاتينية . وفي هذه السنة ، سحقت الصين الشيوعية ثورة شعبية في التيبت ، وفرّ الدالاي لاما (الملك الاله) الى الهند ، ثم الى الولايات المتحدة .

وفي سنة ١٩٦١ ، استولت فرق الشيوعية على اجزاء حيوية من لاوس . واطلق الاتحاد السوفياتي رجلاً الى الفضاء . كما بنت المانيا الشرقية سوراً حول برلين الشرقية لتمنع المزيد من الهرب الجماعي من المعسكر الشيوعي . وخلال هذه السنة انهى الاتحاد السوفياتي فترة التوقف عن تجربة الاسلحة النووية ، ففجر اكثر من خمسين نوعاً من المتفجرات الذرية في اربعة اشهر .

وفي سنة ١٩٦٢ ايضاً ، وقعت الازمة بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الاميركية بسبب شبكة الصواريخ السوفياتية في كوبا ، وارغمت الحكومة الاميركية السفن السوفياتية على التراجع وسحب الصواريخ . وفي هذه السنة بالذات ، اقترعت منظمة الدول الاميركية لمصلحة ابعاد كوريا الشيوعية عن الاشتراك في مجالس وهيئات المنظمة . وقام

الشيوعيون في جنوب فيتنام بحرب عصابات . اما وحدة الكتلة الشيوعية ، فقد ضعفت باتساع هوة الخلاف بين الاتحاد السوفياتي والصين الشيوعية واطلقت الولايات المتحدة رجلاً في الفضاء ، كما استأنفت الولايات المتحدة تجارب الاسلحة الذرية . وفي سنة ١٩٦٨ ، وقعت الانتفاضة التشيكوسلوفاكية ، فقمعها الجيش الاحمر بالقوة .

ثم وقعت الحرب في فيتنام وتفاقم الخلاف بين الصين والاتحاد السوفياتي . وتمكنت الولايات المتحدة سنة ١٩٦٩ (تموز) ان ترسل اول عربة فضائية الى القمر وعلى متنها ثلاثة رجال .

هذه بالموجز لوحة عن الصراع بين الكتلتين والحرب الباردة في العالم، تلك التي تعكس الصراع حول الشرق الاوسط الذي اتسم بطابع مماثل .

٣

لقد بدأ الصراع يذر قرنه في الشرق الاوسط عندما بدأ الخبراء الغربيون يفكرون ، عام ١٩٥١ ، بمشروع الدفاع المشترك للدفاع عن الشرق الاوسط ومصالحهم من الشيوعية ، وأخذوا يحاولون فرض حلف بغداد على الدول العربية وغير العربية الكائنة في الشرق الاوسط . فقد راقب السوفيات عن كثب النزاع بين بريطانيا واميركا على النفوذ في الشرق الاوسط ، كما كانوا على بينة من النزاع الناشب بين كل من هاتين الدولتين والبلدان الغربية ، منفردة ومجتمعة . وتجلّى الدخول الى

المنطقة عن طريق صفقة الاسلحة وتمويل سد اسوان ، ففي حين تقاعس الغربيون عن مد مصر وسائر الدول العربية بالاسلحة الا بشرط عدم استعمالها ضد اسرائيل ، كما تقاعسوا عن منحهم قرض بفائدة مخفضة لبناء السد العالي ، لقد وافق الاميركيون والانكليز على اعطائهم القرض غير انهم اشترطوا الاطلاع على كيفية انفاقه وعدم السماح لمصر الاستدانة من اي دولة اخرى الا بموافقتهم . في هذا الوقت ، عرف الروس كيف يستجلبون مصر وسائر البلدان العربية بصفقة الاسلحة ومنحهم القرض ، فكانت ثمرة للتسلل الطويل والمراقبة الدقيقة وحسن التصرف في الامور .

وها هي سنة ١٩٥٥ تحمل حلف بغداد ، فبفضل القرض وصفقة الاسلحة ، تمكن الروس من تعبئة النفوس عن طريق الاعلام للوقوف سداً منيعاً ضد الحلف . فكان لهم ما ارادوا، واذ بسنة ١٩٥٦ ، تجلب معها العدوان الثلاثي ، فتقف روسيا من فرنسا وبريطانيا واسرائيل موقف المعادي بينما تقف من مصر موقف المحامي ، وذلك بفضل التهويل الذي رافق ، او بالاحرى ، لحق بقرار مجلس الامن القاضي بانسحاب بريطانيا وفرنسا من الاراضي العربية وقد اسرنا الى ذلك .

وسنة ١٩٥٧ تحمل معها « مبدأ ايزنهاور » الذي ابتكره دالس للوقوف في وجه المد الشيوعي السوفياتي في المنطقة ، فكانت ردة الفعل السوفياتية عنيفة عن طريق التعبئة النفسية للشعوب العربية ، بواسطة « صوت العرب » ووسائل الاعلام المصرية والسورية وقسم من الاعلام اللبنانية .

اما سنة ١٩٥٨ ، فقد بلغ الاستغلال السوفياتي اوجه عندما وقعت

ثورة العراق (١٤ تموز) ، ففي حين تحوّل المد الشيوعي الى المنطقة الشمالية ، تقلص ووقع الجزر في المنطقة الجنوبية من الشرق الأوسط. ومرت العلاقات السوفياتية – المصرية في فترة سادها الجفاء . لكن السوفيات اظهروا صبراً ومتانة اعصاب واستمروا في اداء القروض واكمال السد العالي برغم اطلاع السوفيات على مغازلة الولايات المتحدة ومصر بعضاً لبعض في العلاقات . وقد تجلت هذه المغازلة في عقد الولايات المتحدة المزيد من القروض مع الجمهورية العربية المتحدة .

ثم ما لبثت ان عادت العلاقات بين السوفيات ومصر اثر انفصال سوريا عن مصر ، وبدء حرب اليمن (٢٧ ايلول ١٩٦٢) . اما في الشمال ، فاثر انهيار الاتحاد العربي بين العراق والاردن ، طافت موجة الشيوعية ، واحتلت قلب العراق ، وأرسى الحكم الجديد قواعده على التعاون مع السوفيات ، وحل الخبراء السوفيات محل الاميركيين والبريطانيين . وبلغ التعاون المالي والاقتصادي والفني بين العراق والاتحاد السوفياتي رقماً قياسياً في تاريخ العراق . وتوسع الشق بين الدول العربية انفسها ، ولم يكتف حكام العراق بتبادل الحملات الاذاعية والصحافية مع القاهرة ودمشق ، بل اخذوا يحملون على السعودية .

وكانت القاهرة تصف حكام العراق بالشيوعيين الحمر والشعوبيين ، وظل السوفيات ، برغم ذلك ، يستأنفون علاقاتهم الودية ، او بالاحرى ، المتوددة مع الجمهورية العربية المتحدة ، كأنهم يطمئنون الى غد العلاقات بينهم وبين جميع هذه الدول .

وقد بلغ المد الشيوعي اوجه في ٥ حزيران ١٩٦٧ عندما رأى العرب انفسهم في عزلة تامة الا عن الاتحاد السوفياتي الذي مدهم بالسلاح وعوضّ جزئياً عن خسائرهم. واضطر العرب الى السير في ركابه والاعراب له عن شكرهم وعرفان الجميل لما خصهم به .

ترى ، ألم يكن الاتحاد السوفياتي يخطط لحمل العرب على الوصول الى الطريق المسدود ، فلا يجدون امامهم الا الاتحاد السوفياتي . ؟

٤

ان التعبئة النفسية التي قام بها الاتحاد السوفياتي في الشرق الاوسط ، مباشرة بواسطة اعلامه وعن طريق عملائه والحكام الذين ساروا في ركابه وركاب الصداقة السوفياتية – العربية ، لعبت دوراً في كل مرفق من مرافق حياة الشرق الاوسط . فلم تغفل الاعلام عن استغلال كل حادثة في سبيل التعبئة النفسية ضد الغرب ، هذا على الصعيد السياسي . اما على الصعيد العام ، فان الاعلام الشيوعي ادهى من استغل الحوادث التي يقترفها الأثرياء للتشهير بهم امام عامة الشعب واثارة النقمة عليهم .

ان الاعلام الشيوعي ، وهو على ما يبدو ، الافعل في الميدان الاعلامي العالمي ، لا يألوا جهداً ولا يعدم وسيلة تساعد على تحويل القضايا ونتائجها لمصلحة الشيوعية ، بدءاً من الجامعة والمصنع والبيت حتى بلوغ الردهات الدبلوماسية والسياسية العليا .

فقد استغل كل الحركات المناوئة للغرب وللحكام الموالين للغرب في المنطقة . وكان له يد في جميع الثورات والاضطرابات بصورة مباشرة وغير مباشرة ، من المغرب الى الكويت ، حتّى لم يبق حكم موالٍ للغرب الا وتداعت اركانه . ولم يبق الا الحكم الوطني الاصيل في بعض البلدان العربية المنسجم مع البيئة، والشكل الآخر من الحكم الثوري الذي كان للشيوعية ، او على الاقل ، لمبادئها وشعاراتها وسياستها ، فضل في استتبابه .

ومن صلب السياسة السوفياتية الشيوعية ان تستغل كل حركة وطنية في كل مكان ، واذا بدا الشيوعيون عاجزين عن تسلم قيادة الحركة ، او مقدرات البلاد ، فان تكتيكهم يستدعي محاذاة هذه الحركات وتأييدها الى حين على الاقل ، حتّى اذا ما عادت الامور الى نصابها عاد الحزب الى قواعده العقائدية . ان التحدي الشيوعي المعاصر يستغل جميع الجبهات الممكنة ...

وان المؤرخين والمدققين اليوم غير قادرين على اعطاء حكم على الصداقة السوفياتية ، خلاف ما هو شائع لدى الحكام وعامة الشعب . وبالطبع ان الشعوب ، اكانت عربية ام سوفياتية ، هي غريبة عما تخططه الحكومات . فالحكومات شيء والشعوب شيء آخر . والحكومات كل الحكومات زائلة . اما الشعوب ، فهي باقية .

ولا يجوز الخلط بين النقد الموضوعي والتهجم . اذ ليس لدينا اي مصلحة في التهجم على الاتحاد السوفياتي او في تبخير الولايات المتحدة او الغرب . اننا لسنا ملزمين لا بهذا العمل ولا بذاك . وليس ما يحوجنا

على ذلك . لكننا ، بتدقيق العالم والبحاثة ، نتقصّى الامور ونسرد وقائعها بطريقة موضوعية ، لتكون اداة تعبير وتوضيح وتنوير في ضوء الحق .

علينا ان نسلّط الاضواء على مختلف الميادين والسبل . وعلى الشعب والحكام ان يختاروا ويتبعوا الطريق التي يريدون . وليس علينا ان نفرض اراءنا على احد . اذ يجب ان ينتهي عهد فرض الاراء .

ففي ضوء ما تقدم ، سلطنا الاضواء على كيفية تسلل الشيوعية الى الشرق الاوسط ، كما اوردنا في المقدمة الخطوط العريضة لتسلل سائر الدول الى هذه المنطقة . ومن هذا العرض بيّنّا كيف ان لشعوب هذه المنطقة حساسية طبيعية غريبة . انها تريد ولا تريد في آن معاً ، انها سلبية في التعامل مع الآخرين ، وايجابية في الحفاظ على شخصيتها الخاصة . ولهذا العامل يعود الفضل في بقائها بصرف النظر عن ماهية البقاء .

منذ حوالي ٢٥٠٠ سنة ، والصراع دائر على اخضاع هذه المنطقة . وقد خضعت للفاتحين ، ومع ذلك بقيت محتفظة بأصالتها عبر العصور . لقد بني مسرح المدنية الشرقية بتؤدة وجهد استغرق اكثر من خمسة آلاف سنة ، وهي اعرق المدنيات في العالم . مع ذلك ، فانها منطقة صراع بين مدنيتين لم يمض على عمر الواحدة منها اكثر من خمسماية سنة . ان لهذا الاختبار ما يفسّر لماذا المدنية الشرقية تبدو حساسة رافضة لكل عنصر غريب ، وقد قوّى الاسلام فيها هذا الرفض لدرجة انها لا تقوى على التسليم طويلاً الى الامر الخارج عن ارادتها والدخيل عليها ، فأما ان ينصهر هذا الدخيل في بوتقتها واما ان يرحل . واي عودة لسواه يناقض أولا يناقض طبيعة هذه المنطقة محتمل ، فقد ألِفَت التسلل المداور .

٥

ان المدنية الشرقية ، اكبر من ان تكون مدناً وطرقاً ونفطاً وعدداً وآلات وغيرها من مواد مظاهر الوجود المعاصر . وهي اكبر من ان تكون سلاحاً واسراب طائرات وأساطيل . ان هذه المظاهر ان شكلت سراباً خداعاً ، فانها انما تشكل خدعةً لمقدمها وليس لآخذيها . ان المدنية الشرقية هي، كما ظهر بجلاء في بعضٍ من لمحات هذا الكتاب ، طريقة حياة تصل الى اعمق اعماق العقل والروح البشريين .

ولا شك بأن المظاهر المادية لها تأثيرها ، لكنه تأثير لا يلبث ان يتلاشى امام تأثير القيم المعنوية والروحية التي رضعها الشرقيون مع الحليب وتبدأ بـ « البسملة » .

وحتى في اليوم الذي تزول فيه هذه القيم ، اذا ما زالت ، في ذلك اليوم تستبدل النزعة الصوفية المتأصلة بالشرقيين هذه القيم بقيم اخرى لا تخرج عن طبيعتها الصوفية . اما ان تتبنى العقائدية الماركسية — اللينينية ، فهذا يتنافى وطبيعة تأريخها الا اذا ما أُخضعت بالقوة . والى ان تتحرر من تبعية تُفرض عليها بالقوة تكون قد دمّرت التراث الذي خلفه لها الاسلاف ، لا بل ، تكون قد وقعت هي بدورها ضحية الذل والمهانة ، وفقدت ما هي عليه او ما تسعى اليه من حرية .

وقد سبق ان وجدت طريقة الحياة هذه نفسها في الحقب الطويلة الماضية . وكان من حسن حظ هذه البلدان ان استفادت من الصراع الانكلو — اميركي — الفرنسي — السوفياتي ، ونالت استقلالاً بدائياً

يتوجب عليها ان تحافظ عليه بكل جوارحها وتنميه . لقد كانت تعيش تحت سيف مسلط من الداخل والخارج على السواء ، فحان الوقت ان تتحرر منه .

لكنه كان من سوء الحظ في المقابل ان وقعت ضحية هذا الصراع ، وعلى ما يبدو انها لن تسقط من حساب الدول الكبرى بالسهولة . لذا يتعين على الشعوب العربية في جميع حقول الحياة ان يركزوا جهودهم على زيادة كفاءاتهم العلمية والاقتصادية بدلاً من تحقيق حياة اكثر راحة ومتعة وفراغاً . فالعلم المنفتح اكثر العلوم افادة . والاقتصاد الحر لا الاحتكار ، اثبت بالبرهان انه اكثر الاقتصاديات انتاجاً بشرط ان يُبذل اقصى جهد لتنتفع الأمة بقوتها وطاقاتها الكامنة . ويجب استخدام الايدي العاملة والموارد المتوافرة الى اقصى حدود الاستخدام بدلاً من الاتكال على الآخرين، لأن المهمة الموكولة الى الشعوب العربية في هذا الخضم الدولي لا تسمح بالعزلة ولا بأي تطور يبقى فيه الرجال او النساء عاطلات عن العمل ، كذلك ، لا تسمح بعدم اللجوء الى استغلال اي تقدم تكنولوجي .

وهذا معناه انه يجب الخروج من العزلة التي فرضها على الدول العربية النزاع الدولي المشار اليه بين الدول الكبرى ، وعملية الخروج لا يمكن ان تتم بالمواقف المتصلبة ازاء هذه الدولة او تلك، ولا بالاستسلام او بفقدان الشخصية والهيبة والكرامة . ان في الدول العربية رجالات وطاقات يندر ان يوجد نظيرها في سائر الدول . وان الوطنية الصحيحة تقضي بأن تعرض الحكومات عن الانانية ، فتلجأ الى اصحاب الكفاءة

والمؤهلات لاحقاق الحق والسير بهذه البلاد قدماً في معارج التقدم .

وفي الميدان الاقتصادي ، يجب ان يزداد التركيز على قدرة الانتاج بدلاً من الاستيراد المستمر . وهذا يحتاج الى قدر كبير من المسؤولية الشعبية والنظام الشخصي . ويتعين على المجتمعات الحرة ان تدرك ان الأعمال الاقتصادية لها نتائج عامة وخاصة على السواء وتترتب عليها المسؤولية . فالعمل والارادة ، على سبيل المثال ، لهما مصالحهما المشروعة ، وتأتي فوقهما وفوق مصالح اي طبقة او طائفة مصلحة الأمة ، ثم مصلحة العالم العربي بأسره . ويتعين علينا ابتكار اشكال جديدة من التعاون الاقتصادي المتبادل . وامامنا المثل في هذا النجاح الكبير للجالية الاوروبية الاقتصادية او « السوق المشتركة » (فرنسا والمانيا الغربية وايطاليا وهولندا وبلجيكا ولوكسمبرغ) وهو نجاح لمسته الميادين الاقتصادية والسياسية على السواء . اذ اصبحت اوروبا الغربية اكثر تفاهماً من الناحية السياسية ، ونمت اقتصادياً بسرعة اكثر مما سبق لها في التاريخ . وبسبب هذا النجاح طلبت بريطانيا الانضمام الى عضوية هذه الجالية عام ١٩٦١ .

فاين رجالات الدول العربية لا يخططون ولا ينفذون ويستسلمون متوكلين الى نفوذ هذه الدولة الكبرى او تلك ؟ اني اخشى ان هذا النوع من الاستسلام لن يفقدهم هذه المرة تراثهم وحسب ، انما سيفقدهم سبل عيشهم ، واخشى ان تنتظرهم هناك تموينات من البطاطاس يوزعها موظفو السوفيات ، او جرايات ارز يقوم بها الصينيون الحمر الذين بدأوا يتسللون ايضاً الى بلادهم عن طريق التجارة والفدائيين الفلسطينيين .

ان اولى عوامل الاستسلام هي السلبية والاتكالية . وان التحدي الذي يجابه الامم المتخلفة هو مشكلة تقدم المعرفة . ان هذه المشكلة هي جزء من المشكلة الشاملة للاقطار العربية بصورة خاصة ، والاقطار المتخلفة بصورة عامة . وان اغلبية الشعوب العربية والجنس البشري تعيش في بؤس وجهل ، مع العلم أنه اصبح لدينا وربما للمرة الاولى في التاريخ الوسائل التي تكفل رفع مستويات المعيشة ومقاييس تعليم الشعوب . وليس المال هو الاعتبار الوحيد هنا ، فان هذه الشعوب تحتاج ايضاً الى الشعور بالاطمئنان الى بلوغ المساواة بين البشر في غد افضل .

ان الطريقة الوحيدة التي أفلحت في تحدي التسلل الشيوعي ، اظهرت التجربة في لبنان ، هي حرية القول . فالحرية هي مجال التعبير عن الصدق والكذب في آن معاً . وثبت اكثر فأكثر ان كبت حرية القول كان المجال الخصب لترويج مبادىء الشيوعية في بعض الدول المجاورة ، بينما الحرية في نشر ما يريدون افقدتهم فعاليتها وجعلت افكارها عديمة الجدوى . ولا يكفي ان يكون لبنان موئل الحريات ، وهذا لا يكفي وحده لمواجهة التسلل والتحدي الشيوعيين بنجاح ، كما لا يجب ان نكتفي بضمان بقاء الحرية ، وانما يجب ان نضمن انه في امكان هذه الحرية ان تنتشر لتشمل بالتالي جميع الاقطار المجاورة .

ان لا خوف من الحرية في مواجهة التسلل الخارجي ، اي تسلل ، انما الخوف كل الخوف هو من كبت الحريات . ان طبيعة الكبت ، كل كبت ، تولّد الانفجار . ولم يكن الانفجار يوماً ، اي انفجار ، سليم العواقب .

• ... لا يجوز الخلط بين النقد الموضوعي والتهجم . اذ ليس لدينا اي مصلحة في التهجم على الاتحـــاد السوفياتي او في تبخير الولايات المتحدة او الغرب . اننا لسنا ملزمين لا بهذا العمل ولا بذاك . وليس ما يحوجنا على ذلك . لكننا ، بتدقيق العالم والبحاثة ، نتقصّى الامور ونسرد وقائعها بموضوعية ، لنكون اداة تنوير .

علينا ان نسلّط الاضواء على مختلف السبل والميادين . وعلى الشعب والحكام ان يختاروا ويتبعوا الطريق التي يريدون . وليس علينا ان نفرض آراءنا على احـــد ، اذ يجب ان ينتهي عهد فرض الاراء .

• ... ان لا خوف من الحرية في مواجهـــة التسلل الخارجي ، اي تسلل ، انما الخوف كل الخوف هو من كبت الحريات . ان طبيعـــة الكبت ، كل كبت ، تولّد الانفجار . ولم يكن الانفجار يوماً ، اي انفجار ، سليم العواقب .

الثمن [illegible] ل. ل. أو ما يعادلها